17. موعد مع المفوض

أذكر عام 1958 بوصفه العام الذي همد فيه الضغط الكثيف الذي صعّده الشيوعيون منذ عام 1954. كانت الأمور هادئة نسبياً، ولم تكن الإضرابات والمظاهرات والمسيرات تحدث إلا القليل من الإثارة. وكان لدي وقت للتفكير والتأمل ملياً والتخطيط للتحركات المهمة التالية قبل أن تأتي الانتخابات العامة التي كانت مقررة في أواخر أيار (مايو) عام 1959 وكان السؤال الأول ما إذا كان من الأفضل لنا أن نربح الانتخابات ونشكل الحكومة أم أن نبقى في صفوف المعارضة، ولكن بعدد أكبر من المقاعد، وأن ننتظر دورة أخرى كي نعزز مكانتنا لدى الجمهور.

وبعد التجربة في تانجونغ باجار وجالان بيسار، بت واثقاً، أنه إذا عارضنا الشيوعيون في الانتخابات، لن يكونوا قادرين على دحرنا إلا إذا تمكنوا من إعادة بناء تنظيمهم إلى ما كان عليه عام 1956. ومن أجل أن يفعلوا ذلك كان عليهم أن يبدأوا أحزاباً جديدة، من جبهات جديدة، ثم يبنون جسور الثقة مع الجماهير. وكل هذا سيستغرق وقتاً. فكوادرهم ومؤيدوهم الغوريون ـ وهم بضعة آلاف ـ يستطيعون القيام بأعمال المناورة المعتادة لـ «الجبهة الشيوعية المتحدة». (CUF)، ولكن ليس من الجمهور برمته.

وسواء شكلنا نحن الحكومة القادمة أم لا، علينا أن نبقى في قيادة «حزب العمل الشعبي» (PAP) وأن نحول دون تسرب أفراده أو وضع اليد عليه ثانية. كيف كان بوسعنا أن نستغل هذه الفترة من الهدوء، في الوقت الذي يطأطئ الشيوعيون رؤوسهم، لتحقيق ذلك؟ ما زال بوسعهم استعادة الفروع، ولكن ينبغي أن نمنعهم بأية وسيلة من أن يسيطروا على الحزب ككل. في بلد نصف متعلم ومتعدد اللغات يعتبر شعار المرشح أمراً حاسماً أشبه بشعار المُنتج، ودائرة حزبنا

الزرقاء بالعلامات الحمراء اللامعة التي تخترقها قد اكتسبت شهرة. تلك كانت مشكلة آنية. ولكن إذا افترضنا أن المشكلة ستصبح أكثر حدة، لأنه ينبغي علينا التخلص من ليم تشين سيونغ، وفونغ وأعوانهما. كيف نستطيع عندئذ أن نوقفهم ـ فمكانتهم قد تزعزعت من خلال اعتقالهم ـ عن قلب وتهديد حكومة يشكلها حزبنا؟ كنت مقتنعاً بأننا لن ننجو إلا إذا كسبنا أرضية صلبة أولاً، بحيث لا يعود من الممكن مهاجمتنا أو إزاحتنا كما حدث مع «الجبهة العمالية». كان الجواب واضحاً. يجب أن نضم ليم تشين سيونغ إلى صفوفنا قبل أن نستلم السلطة.

كان ثمة مشاغل عديدة تشغلني. فقد بات ليم يوهوك الآن يعرف أن موقفه إزاء المُنتخبين قد تضرر كثيراً، وأنه هو تشيو و سوي كي سيجدان من الصعوبة بمكان أن ينجوا من الهجوم الشيوعي بسبب أعمال التطهير التي قام بها. كما أنهما استمرا في ارتكاب أخطاء جسيمة عدة. حاولت أن أبدد مخاوف ليم يوهوك بنهاية سياسية مفاجئة، وأكدت له أنني لن أضغط عليه من أجل الانتخابات المبكرة التي كان قد وعد بها بحماقة، وأن يترك للوقت أن يغير حظوظه السياسية. وأوجدت له عدة ذرائع من أجل تأجيل الاقتراع. وأقنعته أنه لن يكون من الحكمة أن يظل التصويت طوعياً اختيارياً، لأن الشيوعيين كانوا أكثر تنظيماً وأكثر قدرة على تحريك أنصارهم، وستجد الأحزاب الغنية نفسها أن كل ما ستفعله هو توفير المواصلات لمؤيديها من ذوي الاتجاه اليساري. كان الوقت بحاجة إلى وضع تفاصيل عملية ووضع تشريعات تقبلُ هذه الأفكار بامتنان لأنها أطالت من عمر حكومته.

لم أقل له إنني أيضاً بحاجة إلى وقت لتطهير حزبنا (PAP) وإعادة تنظيمه، ولاختيار كوادر شابة فاعلة من ذوي الثقافة الصينية يترشحون ميدانياً، ولكنهم غير ملتزمين بالشيوعية أو الماركسية. فنحن نحتاج إلى قائمة مرشحين متعددة الأعراق. وفي حين أننا نستطيع أن نجد صينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية، وماليزيين وهنوداً ممن يمكن الاعتماد عليهم كلياً وغير شيوعيين، يصعب أن نحدد المرشحين الصينيين المثقفين الذين سيظلون أوفياء عندما يفتح الشيوعيون النار علينا.

شرعت بتدريب كوادر الناطقين بالصينية الموهوبين من ذوي القناعات السياسية غير اليسارية، ولكننا كنا نصطاد في البركة نفسها كالشيوعيين الذين استغلوا القومية الصينية والأفكار الماركسية ـ المالاوية القائلة بالمساواة. فمعظم الصينيين النشطين والمخلصين كانوا مُشربين بهذه الأفكار المثالية من قبل. وكان عليّ أن أُحولهم إلى الاشتراكية الديمقراطية، وأن أُكسبهم مفاهيمنا السياسية بلغة الماندرين التي لا أتقنها ـ ثم أقرأ التي كتبوها بالصينية والتي كانت من أصعب الكتابات المطبوعة في فك مغالقها.

أعتقد أن الخبرة علمتني أكثر مما علمتهم. فمصطلحاتهم الفكرية كانت تعود إلى التاريخ الصيني، والعادات والأمثال الصينية، والنجاح الأسطوري للثورة الشيوعية الصينية في مقابل حياتنا المخيبة للآمال في سنغافورة. ولكن أياً من هذه العوامل لم يساعدهم على فهم ما كنت أقترحه عليهم ـ من مجتمع برلماني، ديمقراطي، اشتراكي غير شيوعي في سنغافورة المتعددة الأعراق والتي قامت بوسائل سلمية، غير عنيفة ودستورية. كانت خلفيتهم تقودهم إلى الاعتقاد بأن المجتمع الشيوعي يجب أن يأتي بالإقناع المنفتح والقوة الثورية. ولقد اكتشفت مؤخراً، وهو ما أفزعني، أنه لا يوجد إلا قلة من الشيوعيين الذين تحولوا جدياً حتى ضمن المجموعة التي اخترتها، ولم يكن ثمة طريقة لغربلتهم. كانوا كالغبار المشبع بالمواد المشعة.

وذات يوم من أيام شهر آذار (مارس) 1958 جاءني شاب في أواخر العشرينيات من العمر إلى شركتي القانونية (لي ولي) في شارع ملقا، وأخبر تشو أنه يريد أن يتحدث إلي شخصياً. كانت الساعة قرابة الحادية عشرة قبل الظهر، أي في أكثر أوقات الدوام انشغالاً حيث يأتي كثير من الناس. وبعد أن تشاورت معي تشو سمحت له بالدخول. قال: إن لديه طلباً مُلحّاً. هل أستطيع أن أقابل رجلاً يمثل منظمته؟ وهو ما يعني مقابلة شيوعي يعمل بصورة سرية، ـ بالتأكيد هو لم يفصح عن ذلك ـ. أجبته بالإيجاب. وألحّ على أن يكون اللقاء سرياً.

فاقترحت موعداً في الطريق ما بين مقر مكاتب الحكومة في «امبريس بلاس»، ومسرح فكتوريا. فهذا مكان أكثر أماناً بالنسبة لي. أستطيع أن آخذه إلى غرفة لجنة الانتقاء في «مقر الجمعية» على بعد عدة ياردات. كنت أعلم أنها لن تُستخدم لأي اجتماع في اليوم الذي اقترحته للقاء، بل لن يكون هناك أي عضو من أعضاء «المجلس» لعدم وجود جلسات في ذلك الصباح.

وعندما حل يوم اللقاء غادرت مكتبي إلى مكان المقابلة، فوجدت أمامي رجلاً نحيلاً فاتح اللون يضع نظارة في جيب قميصه العلوي ويمسك بجريدة صينية. كان أقصر مني وأكثر نحافة. تبادلنا بعض الكلمات ثم دخلنا إلى «مجلس الجمعية» حسب الاتفاق. كان مظهره يدل على عصبيةٍ وتحفزٍ كرجل في السباق. شعرت من خلال تأملي في ملامحه وكأنه لم يرَ نور الشمس منذ عدة شهور، وأنني أتعامل مع شخص يعمل «تحت الأرض» فعلاً. كانت جبهته عريضة، ووجهه حليق، وأنفه دقيق طويل وشعره أسود وطويل، تسريحته إلى الخلف على طريقة طلاب المدارس الصينيين من الطبقة المتوسطة. كان وسيماً جداً وقدرت أنه لا يمكن أن يكون من الهوكين، بل ربما من «الهاكا» أو «التيوتشيو». وسرعان ما لفت نظري بصرامته. تحدث إلي بلغة الماندرين، وأجبته باللغة ذاتها، ولكنني كررت الأجزاء المهمة من حديثنا بلغة إنكليزية بسيطة كي أتأكد من استيعابه لما قلت. وأدركت من خلال تعبيرات وجهه أنه يفهمني.

قال، إنه يمثل الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) في سنغافورة وأراد أن يقابلني شخصياً من أجل إقامة تعاون مع الشيوعيين وغير الشيوعيين في حزبنا. وأبدى أسفه الشديد لأن كوادر الشيوعيين حاولت السيطرة على الحزب عام 1957. وأكد لي أن تلك المحاولة لم تكن سياسة شيوعية. بل كانوا مجموعة من الشباب المتحمسين ممن أرادوا أن يحدثوا ثورة في الملايو. طلب مني أن أثق به، وبأن عرضه للتعاون في جبهة واحدة معادية للاستعمار عرض صادق.

كان ما اقترحه يعني أن ليم تشين سيونغ وفونغ كانا حُرين في فعل ما أرادا قبل أن يعتقلا عام 1956 ـ لحشد العمال والطلبة والأساتذة والمثقفين والبورجوازية الصغيرة والقوميين الأصدقاء لتشكيل جبهة قوية موحدة يقودها الحزب الشيوعي ويضبطها من خلال كوادره المزروعة في منظماتهم.

فكرت سريعاً وقلت له: إنني لا أعرف من هو، ولا أستطيع أن أعرف ما إذا كان ما يقوله حقيقة. قال: إنني يجب أن أثق به. فطلبت منه بصراحة أن يأتي ببرهان، ليس عن شخصه، بل عن سلطته على الشيوعيين والكوادر الموالية لهم في سنغافورة كممثل حقيقي للحزب الشيوعي المالاوي (MCP)، ابتسم بثقة ونظر في عيني وقال ثانية: إنه ينبغي أن آخذ كلامه على محمل الجد.

ذكرت أمامه اسم تشانغ يوين تونغ الذي كان قد فاز بمقعد «مجلس المدينة» في كالانغ. كان تشانغ نائب رئيس حزب العمال الذي يرأسه مارشال، ورئيس «اتحاد عمال الكهرباء واللاسلكي». كان من الكوادر الموالية للحزب الشيوعي، كما دل على ذلك سلوكه وخطبه في «مجلس المدينة». نظرت مباشرة في عينيه وقلت: أعتقد أن الشيوعيين يستخدمون مارشال وحزبه العمالي لمحاربة حزبنا. فهم لم يكتفوا بتنصيب «تشانغ في كالانغ»، بل حاربوا مرشح حزبنا في جالان بيسار في انتخابات مجلس المدينة في كانون الأول (ديسمبر). (ولم أذكره بأن مرشح حزب العمال قد خسر). قلت: إنه يستطيع أن يثبت بأنه ممثل حقيقي للقيادة الشيوعية في سنغافورة وأنه يتحدث بصدق عندما قال: إن الحزب الشيوعي MCP لم يكن يرغب في مهاجمة حزبنا، عن طريق إكراه تشانغ على الاستقالة من «حزب العمال» ومن «مجلس المدينة».

قال بدون تردد: «حسناً، أعطني بعض الوقت، سأرى ما يمكن عمله. إذا لكان عضواً في منظمتنا فسأفعل ذلك». تحدثنا طوال ساعة من الزمن. كان يقدر شخصيتي وموقفي السياسي، وكنت أجامله بدوري. كانت مقابلته لي مخاطرة، وكذلك كانت مخاطرة بالنسبة لي. إذ لو كان حقاً زعيماً شيوعياً وشوهدت معه

كان علي أن أقدم تفسيراً. ولكنني كنت مستعداً لذلك. وكان لدي ما يبرر موقفي. ودّعته دون أن أتابع أي طريق سلك. اعتقدت أنني لن أقابله ثانية، إذ أنني لم أعرف من هو ولم أرغب في أن أعرف. ينبغي أن أحمي موقفي كزعيم للمعارضة.

أخبرت كينغ سوي فقط حول هذا الاجتماع، كان مهتماً بمعرفة ما سينجم عن ذلك مثلي تماماً. وأطلقنا على الرجل تعبير «the plen» ـ اختصار كلمة «المفوض» بالإنكليزية. عرفنا أنه لا بد أن يكون شخصاً ذا شأن في الحزب الشيوعي MCP ولكن إلى أية درجة من الأهمية؟ وما هي مقاصدهم الحقيقية؟.

كان ارتباطي المهم الثاني في شهر أيار (مايو) 1958، وهو المؤتمر الدستوري الثالث. طرت إلى لندن واتجهت مباشرة إلى «مجلس العموم» لمقابلة لينوكس بويد. وفيما كنا نتجه معاً إلى المؤتمر سألني عن تقديري للتطورات المستقبلية في سنغافورة وعن فرص ليم يوهوك في الانتخابات القادمة. قلت له: إن ليم يوهوك لديه فريق ضعيف وهناك عدد من وزرائه يفتقر إلى الشهرة والأمانة والاستقامة. وهذا ما جعله عُرضة للحملات العنيفة التي شنها الشيوعيون ضده وضد تشيو سوي كي. أتوقع أن ينجح حزبنا، ولما كان قد دافع عن الدستور المقترح في الانتخابات الفرعية في تانجونغ باغار في حزيران من العام الماضي، فأنا لم أطلب أكثر مما تم الاتفاق عليه. وأشرت بشكل خاص إلى «مجلس الأمن الداخلي»، على أنه شبكة الأمان التي ستضمن عدم هيمنة الشيوعيين. ومع وجود ممثل من الملايو يملك الصوت المرجح فإن أي أمر بالاعتقال أصدرته يمكن الدفاع عنه سياسياً.

كل ما تبقى للمجلس أن يفعله هو إنهاء التفاصيل السياسية بهدوء، فقد كان لدى كلٍ من الجانب السنغافوري والبريطاني قناعة صامتة بأن حزبنا يحتمل أن يكسب الانتخابات القادمة، لذا فإن ما قلته كان أكثر أهمية من آراء رئيس الوزراء. وكان علي أن أدقق في التفاصيل بعناية للتأكد من صياغة الدستور الذي كان يفتقر إلى لغة قانونية. ولكنني أتذكر موضوعاً واحداً حساساً قد يجعلنا عرضة للهجوم في سنغافورة.

كانت الحكومة البريطانية مع ضمان قيمة التقاعد للموظفين المعنيين من قبل حكومة جلالتها، من محليين أو غرباء وضد أي تخفيض للعملة المحلية في المستقبل. وقد فهمت فيما بعد أن الغاية من ذلك الإصرار على الضمان المذكور هي المحافظة على الروح المعنوية للموظفين المعنيين من قبل الإدارة الاستعمارية، وفي المناطق الأخرى التي كانت تتطلع إلى الاستقلال. ولكن من دواعي السخرية أن الجنيه الاسترليني هو الذي انخفضت قيمته إذ وصلت في عام 1995 إلى 2.20 دولار سنغافوري، أي إلى ربع قيمته في عام 1958 . والضباط الذين كانوا يطالبون باستلام تقاعدهم بالجنيه الاسترليني لم يكونوا محظوظين. ولكن من أين لهم أن يعرفوا أن سنغافورة ستشق طريقاً يختلف عن باقي المستعمرات السابقة؟.

وفي ظهر أحد الأيام، وكنت ما أزال في لندن، قرأت في الصفحة الأولى من صحيفة «ستريت تايمز» أن تشانغ يون تونغ، نائب رئيس حزب العمال، مستشار المدينة، ورئيس اتحاد مستخدمي الكهرباء واللاسلكي «قد استقال» لأن متطلبات العمل جعلت من المستحيل بالنسبة إليه إيجاد وقت كافٍ لعمل المجلس.

أعطى المستشار أوامره التي أُطيعت. وأثبت جدارته في تحمل المسؤولية التي وجدتها مثيرة للأعصاب، واعتقدت أنها ستتحقق ولكن ليس بسرعة شديدة. فقد كان ثمة رجل فار مطلوباً من الشرطة، ربما كان مختفياً في مهجع ما في سنغافورة. اتصل بي عبر أحدهم وأعطاني بطاقة عمله مع عنوان مخزن للدراجات في «شارع روكور» كي أتصل به إذا شئت. كنت واثقاً أن الوسيط لن يكون قادراً على إرشاد الشرطة إليه. ومع هذا فإن أوامره نقلت إلى تشانغ في غضون ثماني أسابيع ونُفذت بأمانة. كانت عرضاً مؤثراً لنظام منظمة «الحزب الشيوعي المالاوي».

لم يكونوا رجالاً يستهان بهم. فقد كان يناصرهم الكثيرون، لأن الناس كانوا يتوقعون أنهم سيكسبون ولديهم الحظ الأوفر. إذاً كان التاريخ إلى جانبهم، فلمَ نرتكب حماقة محاربتهم؟ ومع هذا فقد كنت أنا وبعض الأصدقاء من الناطقين بالانكليزية جاهلين بتورطنا في التهجم على حركة أوجدت مصداقيتها من خلال ثوارت ناجحة في روسيا والصين.

لم أُرد أن أظهر قلقي أو اهتمامي، ولأنني لم أزر روما أبداً من قبل، فقد قررت أن أقوم برحلة إليها لمدة أربع أيام، لقد كانت روما مليئة بدراجات فيسبا، قبل أن تزدحم بالسيارات ويعلوها الدخان. أمضيت معظم وقتي أتجول في المدينة القديمة وأزور «الساحة العامة» ونصب فيكتور إيما نويل التذكاري بقاعدته البرونزية التي تُبين توسع الهيمنة الرومانية عبر أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط. ذكرتني بأن جميع الإمبراطوريات تزدهر ثم تندثر، وأن الإمبراطورية البريطانية كانت في طريقها إلى الاندثار كشأن الإمبراطورية الرومانية قبلها.

خرجت بانطباع آخر مؤثر فقد مشيت ذات صباح إلى كاتدرائية سان بطرس، وكنت مندهشاً بسرور عندما ظهر البابا يحيط به حراسه السويسريون. وسرعان ما راح يهتف المتحلقون حوله من الجمهور «عاش البابا» والراهبات الواقفات قرب المحفة يرددن بمرح. بعد تجربتي مع اجتماعات الشيوعيين الحاشدة كنت أتوق إلى الهتاف للقادة. كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تستخدم مثل هذه الأساليب في حشد الجماهير قبل الشيوعيين بوقت طويل. لا بد أن الكنيسة قد قامت بأشياء كثيرة سليمة مما جعلها تستمر ألفي سنة تقريباً. تذكرت ما قرأته عن بابا جديد انتخبه قرابة مئة كاردينال كان البابا قد عيّنهم من قبل.

وعندما عدت إلى سنغافورة، كان علينا أن نقرر مرشحاً لانتخابات كالانغ الفرعية، والتي كنت واثقاً من انتصارنا فيها. رشحنا نقابياً نشيطاً، هو بوانغ بن عمر جنيد، وقبل الانتخابات الفرعية بقليل أرسل إلي «المفوض» قاموساً إنكليزياً ـ صينياً مطبوعاً في الصين، وضمنه ورقة كتب عليها: «إلى المحترم السيد لي كوان يو أتمنى النجاح لحزب العمل الشعبي (PAP) في انتخابات كالانغ الفرعية». وقع الورقة باسم «جون لي، تموز 1958». وكان مراسله قد أخبرني بعد ذلك أن هذا اسمه المستعار. وكانت هذه الرسالة تعني أن الشيوعيين لم يتخلوا فقط عن مارشال، بل طلبوا من أنصارهم أن يؤيدوا حزبنا.

في يوم الانتخابات حصلنا على 4278 صوتاً، وحصلت «جبهة العمل» على 3566 صوتاً. فيما حصل حزب العمال على 304 أصوات فقط. وكان ذلك درساً مُهيناً لمارشال، فقد دلت النتائج على أنه بدون الشيوعيين ستكون هذه هي قوته الحقيقية. أما بالنسبة لنا فإننا لو رشحنا مرشحاً صينياً بدلاً من مرشحٍ مالاويٍ عن حزبنا لكانت النتيجة أفضل. شعرت بالثقة بأننا نستطيع أن نهزم تحالفاً ما بين «جبهة العمل» و«الحزب الاشتراكي الليبرالي» في الانتخابات العامة. ولكننا لم نكن خارج المتاعب بعد. فالقانون الخاص بحفظ الأمن العام (PPSO) الذي أعطى الحكومة صلاحيات السجن بدون محاكمة، كان من المقرر أن يمدد من قبل الجمعية لفترة ثلاث سنوات. كانت فرصة مهمة لجعل موقفنا واضحاً، ولكنه يتطلب معالجة شديدة التدقيق نظراً لأننا سنراجع موقفنا الأول. وبعد مناقشات حامية مع زملائي المقربين، حضرت نصاً للخطبة. شرحت فيها للمجلس أن حزبنا لا يستطيع أن يصوت لصالح القانون المذكور في هذه المناسبة، لأن هذا من شأنه التراجع عن وعدنا في انتخابات عام 1955 وشطبه. ولكنني تابعت قائلاً: إن ذلك لن يكون موقفنا في انتخابات 1959.

نحدد موقفنا الآن حول مسألة قوانين الطوارئ، وهو: طالما أنها ضرورية لحماية «أمن الاتحاد» فإنها ستكون ضرورية لسنغافورة... أولئك الذين أسقطوا قوانين الطوارئ في سنغافورة، عليهم أن يساعدوا في ترسيخ شروط الأمن والسلام في الاتحاد بحيث لا تكون لها حاجة.أوضحت ذلك سياستنا بدون محاولة لمجابهة الشيوعيين. وكان علينا تالياً أن نحمي حزبنا ضد أي سيطرة من جانب الجناح اليساري في الحزب.

وعند عودتي من روما اقترحت أن تكون انتخابات الحزب للجنة التنفيذية المركزية على غرار انتخاب البابا. وفيما كنا نبحث في التفاصيل، توفي البابا بيوس الثاني عشر في 9 تشرين الأول (أكتوبر). واجتمع الكرادلة في كنيسة سان بطرس لانتخاب البابا الجديد، وفي غضون ثلاث أسابيع أعلنوا عن انتخاب

البابا يوحنا الثالث والعشرين. وقد لاحظنا قوة هذا النظام، وفي المؤتمر الخاص للحزب في 23 تشرين الثاني (نوفمبر) أجرينا التعديلات الضرورية. فتضمن الدستور المعدل درجتين من عضوية الحزب: الأعضاء العاديون الذين يستطيعون أن ينضموا مباشرة إلى قيادة الحزب أو عبر الفروع، والأعضاء والكوادر، وهم أعضاء مختارون لا يتجاوزون بضعة مئات حصلوا على مصادقة اللجنة التنفيذية المركزية CEC فقط يستطيعون بدورهم أن يترشحوا لهذه اللجنة، تماماً كما يختار الكرادلة الذين يسميهم البابا، فهم الذين يحق لهم أن ينتخبوا البابا الجديد. وهذا ما يغلق الدائرة. إذ لما كانت اللجنة CEC تشكل جوهر الحزب، فإن الحزب لا يصبح تحت هيمنة شخص واحد.

في شهر كانون الأول (ديسمبر) أعلنا في مقالة نُشرت في صحيفة الحزب، «بيتر» نؤكد فيها أن حزبنا ليس حزباً شيوعياً وأن «قانون المحافظة على الأمن العام» (PPSO) سيظل ساري المفعول إذا ما استلمنا السلطة. وليس عندي أي شك أن «المفوض» قد قرأ كل كلمة قلتها في نقاش «الجمعية» حول هذا القانون، ومحاضر مؤتمر الحزب التي تلت ذلك، كما أنه اطلع على تلك الافتتاحية التي نشرت ثانية في الصحافة الصينية. لهذا لم أكن مندهشاً عندما اقترب مني رجل من دكان لبيع الدراجات يطلب اجتماعاً آخر.

بعد ذلك جرى اجتماع بيني وبين «المفوض»، بناء على طلبه، في منزل صغير في منطقة سكنية خارج شارع تومسون. أمضيت معه قرابة ساعتين. أكد لي أنه لا ينبغي أن أكون كثير الشكوك في نوايا الشيوعيين. أما المشكلة التي كنت أعاني منها مع ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سيوان، وليم تشين جو هي صعوبة اتصال منظمتهم مع كوادرها. أما وأني أتعامل الآن مباشرة مع القيادة العليا فلن يكون بعد الآن أي سوء تفاهم. أصغيت إليه بانتباه وتمنيت أن تكون الأمور كما قال. شعرت أن خياراته محدودة. فمهما كانت وعوده كنت أعرف أن علينا أن نحافظ على قاعدتنا الشعبية بالتمسك بمواقفنا قبل الانتخابات. فإذا بقي الموالون

للشيوعيين في حزبنا ولم يبتعدوا أو يتخلوا عن تلك المواقف، فسيكون من الصعب عليهم بصورة أكبر أن يهاجمونا عندما نصبح نحن الحكومة. ولكنني كنت متأكداً أن تعاوننا إذا ما استمر لسنة أو سنتين أو ثلاث سنوات فنحن مصممون على ألا تكون هناك مالايو شيوعية، وهم قد يصممون من جانبهم أن تكون المالايو شيوعية، وبالتالي لا بد من الافتراق في النهاية. لم أكن أدري ما هي خططه، ولكن كان بوسعه أن يرى أنني تبنيت علناً سياسات من شأنها أن تتخذ إجراءات حاسمة ضد الشيوعيين إذا اقتضت الضرورة. وكنت أعتقد أنه كان واثقاً كل الثقة أنه عندما يُطلق سراح ليم تشين سيونغ وفونغ والمئة والخمسين معتقلاً من كوادرهم، سيكونون قادرين على إعادة بناء قوتهم في غضون 12 ـ 18 شهراً ليصلوا إلى المستوى الذي كانوا عليه في تشرين الأول عام 1956، عندما تم التخلص منهم. وعندئذٍ سوف يملي شروطه. وإذا ما تحركت عند ذاك ضد ليم تشين سيونغ وفونغ وأفواجهما في النقابات والمدارس المتوسطة الصينية والمنظمات الثقافية، فسوف أُدمّر انتخابياً كما جرى لكل من ليم يوهوك وتشيو سوي كي. لم يلعب معي لعبة الأقراص والكأس. كان يحاول أن يلعب معي ما يسمى باللعبة الصينية [1]. ولكنني في الوقت الحاضر في الوضع الأقوى. إنه يحاول بصبر أن يحاصرني بقواته الأرضية المتفوقة. وكي لا أخسر عليّ أن أتخذ مواقف قوية تعطيني مزايا في الدفاع، حتى ولو كان لديه عدد أكبر من المهاجمين. أما إذا ارتكب حركة خاطئة من خلال المبالغة بالثقة، فإن المائدة ستنقلب عليه وستتاح لي الفرصة كي أحاصره.

---

[1] لعبة يضع فيها اللاعبان بذوراً على لوحة مربعة حتى يحيط أحدهما ببذور الآخر، إنها لعبة حاصرة.

18. انتخابات 1959- نناضل كي نكسب

كنت ألتقي بديفان نير، وليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سيوان، وودهول وبوتشيري مرة كل ثلاثِ أو أربعِ أسابيع طوال الفترة ما بين 1958 ـ 1959، وذلك في معسكر اعتقالهم الذي يقع خارج سجن تشانغي. وكنت أحضر لهم معي بعض أنواع الطعام والشراب. وأثناء لقاءاتنا ألمحت إلى شكوكي بكسب الانتخابات القادمة، لأن حكومة حزبنا سرعان ما ستجد نفسها في صدام مع الحزب الشيوعي المالاوي (MCP)

وقد أزعجهم هذا، فإذا لم نكسب الانتخابات ونمسك بزمام الحكم فإن فترة اعتقالهم ستطول بضع سنوات أخرى. وقد كانوا يلتفون حولي ويعدون بمنح الحزب تأييدهم المطلق. ولكنني كنت أعلم أن هذه الوعود الشفوية لا قيمة لها، لذا طلبت منهم أن يسجلوا وعودهم بتأييدنا كتابياً. وكتب نير مسودة هذا التعهد وراحوا يتشاورون حولها.

كان نير، المعتقل منذ 1956 قد بدأ يفقد إيمانه بقضيته. وذات يوم رتب كوريدون لقاء بيني وبينه على انفراد في بيت ريفي في جزيرة سان جون حيث أمضيت معظم النهار معه. حدثني عن خيبات أمله وعن نيته في اعتزال السياسة. حاولت أن أواسيه ونصحته ألا يرتكب أي فعل متهور. شعرت أنه، كهندي، لن يرتاح أبداً في حركة تهيمن عليها مشاعر شوفينية صينية. ولكنه كان في موقف صعب. كان عضواً في «الرابطة المناهضة لبريطانيا»، ومرشحاً بالتالي لعضوية كاملة في الحزب الشيوعي. وكان لدى هذا الحزب حفنته من الهنود والناطقين بالإنكليزية ممن يثق بهم. وارتداده ـ وربما خيانته ـ ستكون ضربة قاصمة لهم، ورد فعلهم يمكن أن يكون شديداً. كان يعرف هذا ويتحسب من فرقة الإبادة لديهم.

لم تكن مسودة نير الأولى تتناسب مع سياسة حزبنا التي كنا ننوي أن نعلنها قبل بضعة شهور من الانتخابات، لذا طلبت منه أن يعيد كتابتها. وقلت له: إن راجا، وكينغ سوي، وتشين تشي وأنا كنا نُعد وثيقة بعنوان «المهمات التي أمامنا» والتي ينص الفصل الأول منها على قاعدتنا السياسية الأولى ـ استقلال سنغافورة من خلال الاندماج مع مالايو ديمقراطية، اشتراكية، ولكن غير شيوعية. وكان حائراً ما بين موقفنا الصلب الذي لا يقبل المساومة وبين رفض رفاقه الموالين للشيوعيين المعتقلين لها.

في بداية عام 1959 كان بيان نير السياسي جاهزاً للتوقيع من قبل رفاقه المعتقلين. وكان البيان تأييداً مطلقاً لموقف الحزب، بأن سنغافورة سوف تكسب الاستقلال من خلال الاندماج مع مالايو ديمقراطية، اشتراكية، وغير شيوعية. كان هذا أمراً جوهرياً. فبدون مثل هذا الالتزام كنت أراهم يتوجهون إلى تحقيق حركتهم خارج «الاتحاد». ولم يكن أمامهم خيار آخر، فالمالايو كان لديها حكومة معادية للشيوعية وتتمتع بقاعدة شعبية واسعة وجيش قوي يدعمه البريطانيون. وأخيراً وقّع الرفاق البيان واستلمت نسخة منه قبل بضعة أسابيع من يوم الترشيح في 25 نيسان (إبريل). وكان البيان يتضمن أنه عندما يتم إطلاق سراحهم فسوف يعلنون على الفور موقفهم، ويذيعون نص الوثيقة في مؤتمر صحفي.

مالذي جعل ليم تشين سيونغ يوقع؟ لعله وضع في حسابه أنه بدون التأكيد على تعاوننا لن نكسب الانتخابات. والحق أنها كانت مهمة قعساء. كنت أعرف المشكلات التي تواجه الحكومة القادمة. فقد كانت نسبة البطالة 12%، وفي كل سنة يولد 62 ألف طفل. ومع تزايد عدد السكان سنوياً بنسبة 4% فإن آفاق الاقتصاد مظلمة. لم يكن لدينا مناطق تزودنا بالمؤمن، ولا أسواق داخلية واسعة من أجل صناعات جديدة، بالإضافة إلى القلاقل العمالية. ولم أكن واثقاً البتة من أننا سنستطيع مواجهة الهجمات الشيوعية التي ستتبع ذلك.

أخذت هذه الصورة في زيارة (من اليسار إلى اليمين) ليم تشين سيونغ، سيدني وودهول، فونغ سوي سوان، ديفان نير في معسكر الاعتقال تشانغي عام 1958.

كان راجا، المثالي والعقائدي يميل إلى أن نشكل معارضة قوية. أما كينغ سوي وكيني، وكلاهما إداريان؛ فقد كانا مقتنعين بأن علينا أن نشكل الحكومة. وقالا: إن الفساد سوف ينتقل من الوزراء إلى الخدمة المدنية نفسها، وإذا بقينا فترة خمس سنوات أخرى تحت حكم ليم يوهوك، فلن تكون هناك إدارة فعالة لتنفيذ سياساتنا، وخلافاً للشيوعيين لم يكن لدينا كادر خاص بنا نستبدله. وفي شهر شباط (فبراير) قررنا أن نناضل من أجل أن نكسب، واستعداداً لذلك استقال كل من كينغ سوي وكيني من منصبيهما الرسميين، بموجب قانون خاص يسمح للموظفين السابقين ذوي المراتب العليا أن يستقيلوا كي يشتركوا في الانتخابات مع استمرار تقاضي تقاعدهم. وكان منافسنا الأول «تحالف شعب سنغافورة (SPA) وهو تحالف ما بين «الجبهة العمالية» و«الاشتراكيين الليبراليين» اللذين كان ليم يوهوك قد ضمهما معاً في شهر نوفمبر الماضي.

وضعنا مسودات أوراق تتعلق بالاقتصاد، والتربية، والإسكان، والصحة، والتنمية الريفية، والعمل، وحقوق المرأة، نشرناها في سلسلة من الكتيبات تحت عنوان «المهمات التي أمامنا».

انطلقنا بحملتنا الانتخابية يوم الأحد 15 شباط (فبراير)، بعقد اجتماع حاشد سبق الانتخابات في «هونغ ليم غرين»، حيث كشف تشين تشي أن الأمريكيين قد أعطوا نصف مليون دولار إلى حزب «تحالف شعب سنغافورة» وكان ذلك بمثابة قنبلة.

استطعنا إثبات ذلك من خلال التحقيقات التي جرت. وكانت تلك ضربة سياسية قاصمة لهذا الحزب أفادتنا شعبياً وسياسياً إلى حد كبير.

أنكر حزب «تحالف شعب سنغافورة» (SPA) الاتهام ووصفه بأنه أكذوبة. ونشرت القنصلية العامة الأمريكية بياناً ينفي أن تكون الحكومة الأمريكية قد قدمت أية معونة للحزب المذكور ـ إذ ليس من سياسة الولايات المتحدة التدخل

في الشؤون السياسية للدول الأخرى. وفي 18 شباط قدمت مذكرة إلى «الجمعية» ذكرت فيها اسم تشيو سوي كي بوصفه الشخص الذي استلم المبلغ، وطالبت بلجنة تحقيق.

ولما كان الموضوع سيثار في 4 آذار فقد قدم تشيو من منصبه كوزير للتربية كما استقال من «الجمعية» وقال في مذكرة رسمية: «أريد أن أنظف اسم الحزب (SPA) ليس لدي ما أخفيه».

أثناء المداولة قلت: إن تشيو قد تلقى في عام 1957 مبلغ 300 ألف دولار لحزبه، بعضها من أجل انتخابات «مجلس المدينة» في عام 1958، كما تلقى 500 ألف أخرى لأغراض سياسية. وكشفت بأنني حصلت على موافقة فرانسيس توماس بأنه هو الذي أخبرني بأن تشو قد تلقى مبلغ 300 ألف دولار، وفيما كنت أتكلم غادر توماس مقاعد الحكومة واتجه إلى الجلوس مع المعارضة.وشرح للصحافة أنه لم يكشف المسألة آنذاك لأن ذلك كان من شأنه أن يحطم الحزب، وربما الحكومة. وفي أواسط عام 1958 بات من الواضح له أن الجبهة لن تحقق ربحاً، وأنه أخبرني بشأن المبلغ، طالباً مني أن أبقي الأمر سراً (وهذا ما لم أفعله) في ذلك الحين كان قد استقال من الوزارة.

ولما كنت قد حققت هدفنا السياسي بتعرية الحزب (SPA) بسبب أخذه أموالاً من الأمريكيين، طلبت أن أسحب اقتراحي. ولكن ليم يوهوك رفض الاقتراح بدون تروٍ. وصرح بأن الحكومة ليس لديها ما تخفيه، وأنه أراد لجنة تحقيق لا من أجل التأكد من الاتهامات، ولكن من أجل معرفة كيف تسربت المعلومات من دائرة ضريبة الدخل. وفتحت اللجنة تحقيقها في 6 نيسان برئاسة المحقق موراي باتروس، وهو أسترالي عمل في القوات البريطانية المسلحة في الحرب، وقمت أنا بالادعاء ضد كيني وتشين تشي. والتفاصيل التي كشفت فيما بعد ألحقت مزيداً من الضرر بحكومة حزب التحالف (SPA).

اعترف تشيو أنه اشترى بمبلغ 800 ألف دولار، موضوع الدعوة، منزلاً في إبوه باسم زوجته بمبلغ 51 ألف دولار، واستثمر مبلغ 250 ألفاً في شركة «بيرال ماينغ» باسم السيد تشونغ العضو الموثوق في حزبه، كما استثمر مبلغ 30 ألف دولار في شركة إبوه للتعدين باسم تشونغ. كما أعطى أسهماً بقيمة 50 ألفاً في شركة التعدين إلى السيدة هاميد جومات زوجة وزير الحكم المحلي. رفض ممثل «ناشيونال سيتي بانك» في نيويورك أن يعلن اسم المتبرع، بل كتب اسمه على ورقة سلمها للمفوض الذي لم يكشف عنه.

وقد أكدت ما اكتشفته اللجنة في 25 أيار بالتفصيل ما كشف عنه تشين تشي في خطبته. ونشر التقرير في الصحافة في 27 أيار، أي قبل يومين من إجراء الاقتراع. وقد أكد التقرير ما عرفه المصوتون من قبل ـ إن حكومة ليم يوهوك كانت فاسدة، والأسوأ من ذلك أنها أصبحت ألعوبة في يد الأمريكيين.

كانت أحزاب المعارضة في حيص بيص، كما توقعت، عندما اقترب يوم الترشيح. كنت أعلم أن ليم يوهوك أراد أن تكون منظمة المالايو المتحدة وMCA مع جبهة العمل والحزب الاشتراكي الليبرالي. كان قلقاً من تكرار الانقسام الذي جرى في انتخابات «مجلس المدينة». ولكن الأمور لم تجرِ كما يشاء. فمصيبة تشيو سوي كي والنتيجة التي توصلت إليها لجنة التحقيق قد أبعدت أصوات التأييد. وفي غضون ذلك أدى الإنشقاق العام في صفوف الاشتراكيين الليبراليين إلى اضطراب عارم، لأن كثيراً من «الجمعية» ومن الأعضاء العاديين غادروا الحزب. وبدلاً من أن يندمجوا مع حزب التحالف، كما تمّ الاتفاق من قبل، فإنهم ذهبوا إلى الانتخابات منفردين.

في يوم الاقتراع، 25 نيسان (إبريل) 1959 طرح الحزب المذكور SPA (39) مرشحاً، وطرح «الاشتراكيون الليبراليون» 32 مرشحاً، وكان هناك 34 مرشحاً مستقلاً، أما حزبنا فقد طرح 51 مرشحاً، منهم 34 صينياً، و10 مالاويين، و6 هنود وواحد أوروبي ـ آسيوي. كانت نسبة مرشحينا من المالاويين والهنود أكثر من نسبتهم السكانية، ولكننا وجدنا أن ذلك اختيار جيد من أجل معنويات الأقليات.

عقدنا ست اجتماعات جماهيرية حاشدة، وما بين 60 ـ 100 لقاء في الشوارع خلال الحملة التي استمرت 33 يوماً. حيث كانت مؤشرات المراهنات تميل منذ البداية لصالحنا، وهذه كانت علامة طيبة. علمت الأحزاب الأخرى بذلك الأمر الذي أحبط من معنوياتها، ولم تقم بحملات معاكسات شديدة. ومن ناحية ثانية أظهر العاملون في حملة حزبنا طاقة هائلة من النشاط. كان كثير من مرشحينا دون سن الثلاثين، وقد أثارت خطبهم الكثير من الحماسة في أوساط الشباب.

في وسط هذه المعمعة شعرت أن التونكو وزملاءه في كوالا لامبور لم يرحبوا باحتمال فوز حزبنا غير الشيوعي في سنغافورة. وفي اليوم التالي وصفني حامد جومات بأنني معاد للشيوعية بشكل واضح. كنت أعتقد أنه صلب موقفه برسائل وصلته من كوالا لامبور. كان من الواضح أي جانب اختار «التونكو».

وفي يوم الأحد 22 آذار (مارس) ألقى كينغ سوي خطبته حول «السياسة الاقتصادية» ضمن نشاطاتنا تحت عنوان «المهمات التي تواجهنا». وشرح في خطبته ضرورة التعاون بين سنغافورة والملايو. وقال: «بالعودة إلى سوق مشتركة نستطيع أن نعرض على «الاتحاد» إشرافاً مشتركاً على مينائنا، الذي يسهل كثيراً من تجارتنا الخارجية». ولكن تان سيوسين، الوزير الاتحادي الحالي للتجارة والصناعة، رد قائلاً: «إن حزب العمل الشعبي لا يعرف عما يتحدث. إن فكرة سوق مشتركة ليست فكرة عملية. ينبغي أن يتأكد هذا الحزب أنه لا يمكن إقامة ميناء حر وسوق مشتركة في الوقت نفسه. ينبغي أن تختاروا واحداً من هذين الخيارين».

ظننت في ذلك الوقت أنه يريد أن يساعد الجانب الآخر فحسب في الانتخابات. ولكن تأكد لي بعد وقت طويل أنه شديد الإيمان بتلك الآراء. كان كينغ سوي ابن عم تان، ولكن الأخير لم يكن يريد أن يعطي سنغافورة أي شيء، كما تبين لنا فيما بعد. كانت الأجواء في كولا لامبور معادية بصورة عامة لحزبنا. أنعم التونكو على ليم يوهوك بلقب «تون» وهذا أعلى مكافأة في المالايو. وقال:

بالرغم من أنه لن يشارك في الحملة الانتخابية فإنه سيساعد UMNO من وراء ستار. كان معادياً لحزبنا وقد حذر أنصارنا في منظمة UMNO بأنهم سيطردون إذا وقفوا على الحياد.

لم تكن الحكومة الأمريكية تحبذ حزبنا أيضاً. فقد ذكرت صحيفة «ستريتس تايمز» أن وزارة التجارة الأمريكية تتنبأ بأن تنحرف سنغافورة إلى اليسار وأن تتخلى عن تقاليدها في التجارة الحرة... ومثل هذا الاحتمال يجعل من المستحيل تقدير النظرة الاقتصادية للمدينة وآفاق التجارة فيها". وتابعت الصحيفة نقلاً عن المصادر الرسمية الأمريكية... « ..أن المناخ الاستثماري في سنغافورة مستمر في التدهور رغم أن الحكومة قد أعلنت رغبتها في جذب الاستثمارات الأجنبية».

كانت الصحافة الصادرة بالإنكليزية معادية لنا بشدة، خلافاً للصحافة الصادرة بالصينية أو المالاوية التي كانت ودية معنا. تلك العداوة أشعلت معركة عندما أطلقت طلقتي الأولى في 15 نيسان: «إن الأمر معروف (أنه إذا ما فاز حزبنا) أن يغادر طاقم تحرير ستريتس تايمز ـ Straits Times إلى كوالا لامبور مسرعاً. وأولئك الذين يؤمنون بآراء الجريدة سوف يغادرون معها. إذا قرأتم ما تكتبه الجريدة ستظنون أننا متطرفون ومتوحشون».

جرى ذلك في اجتماع حاشد وقت الظهيرة في «ميدان فوليرتون» في قلب المدينة، بالقرب من المصارف البريطانية حول «منطقة رافيلز». كان معظم الجمهور من العمال المتحدثين بالإنكليزية.

وقلت: «إنه تحيز صريح» وحذرت قائلاً: «إذا كان هناك أناس يريدون أن يؤذوننا فسنكيل لهم الصاع صاعين».

في الاجتماع الثاني تابع «راجا» هجومه على صحيفة «سنغافورة ستاندارد» قال: «تحدثوا عن حرية الصحافة ولكنهم حطّوا من شأن آراء أولئك الذين لا يتفقون معهم». كان ضليعاً في الحديث. طلبوا منه، وهو رئيس تحرير الجريدة من 1950 ـ 1952 أن يُغير سياسته أو أن يتخلى عن العمل. وتخلى بالفعل عن

عمله وتحولت الجريدة إلى صحيفة معادية لحزبنا. وبعد أسبوع عاد إلى صحيفة ستريتس تايمز التي كان يعمل فيها قبل انتقاله إلى «ستاندارد». كان يعرف من يدير الجريدة، وسمّى أربعة أشخاص، منهم أ.س. سيمونز الذي كان يشرف على الجريدة يومياً. كان سيمونز متيقناً أنني وراجا لم نكن نمزح عندما قلنا إننا إذا شكلنا الحكومة فسنبعدهم. وكانوا يستعدون بالفعل إلى مغادرة الشركة هم والموظفون الأساسيون إلى كوالا لامبور، لأنهم كانوا يخشون من انتصار حزبنا. لم يكن لدي أية شكوك أنهم كانوا عازمين على محاربتنا من العاصمة الاتحادية. كتبت إليهم:

«إذا كانت الصحف المحلية تنتقدنا فإننا نعلم أن انتقادها، سواء أكان على خطأ أم على صواب، هو انتقاد مخلص، لأن عليهم أن يتابعوا نتائج أية سياسات حمقاء أو قضايا ربما كانوا قد دافعوا عنها. ليس شأنهم كشأن صحيفة «ستريتس تايمز» عليهم أن يتابعوا «الاتحاد» الذي يقولون إنه من أجل المحافظة عليه سيموتون من أجل حرية سنغافورة».

رد علي رئيس التحرير لينرلي هوفمان في اليوم نفسه:

«أنا لست طائراً عابراً. أنا المسؤول عن سياسة هذه الصحيفة ومحتوى افتتاحياتها. أنوي الإقامة في سنغافورة، حتى لو وصل السيد لي وجريدة «حزب العمل الشعبي» إلى السلطة، وحتى لو استخدما قانون الطوارئ ضدي.. ستظل سنغافورة وطني».

ولكنه غادر إلى كوالا لامبور قبل أن تنتهي الانتخابات. أي قبل خمس أيام من الاقتراع أعلم هوفمان معهد الصحافة الدولية، في اجتماعه السنوي في برلين الغربية الصحفيين ورؤساء التحرير والناشرين أن تهديداتنا يمكن أن تفهم على أنها «ما تفيض به مجموعة من السياسيين المتعطشين للسلطة». ومن جهة أخرى فإن «ستريتس تايمز» كانت تحرر ويسيطر عليها المالاويون الذين ولدوا هنا وبقوا في المالايو طوال حياتهم أوفياء لبلدهم. ولم يعترف بأن سادته البريطانيين هم الذين كانوا يملكون الصحيفة ويوجهون سياستها.

كان سايمون يعرف أنه ضعيف، لذا وكّل هوفمان بعرض قضيته على IPI «كانت حالة فريدة تعطي لهذه الجمعية فرصة لتمنح حزباً ما تأييداً شعبياً وتدافع عن نيته المعلنة في قمع حرية الصحافة». ولكن كان ذلك ما نوى حزبنا أن يفعله ـ الحصول على تأييد شعبي لسياستنا بأن الصحافة ينبغي ألا يمتلكها أجانب كي لا يوجهوا خطّها. استشهد هوفمان بمقطع مما قلته في 18 أيار:

> أية جريدة تحاول أن تنتقد أو تهاجم العلاقات بين اتحاد الملايو وسنغافورة بعد 30 أيار فإنها تسعى إلى التخريب. وأي رئيس تحرير أو كاتب بارز أو مساعد له أو صحفي يتبع مثل هذه السياسة فسوف يحاسب بموجب «قانون المحافظة على الأمن العام».

كان موقف صحيفة «ستريتس تايمز» غير مبرر لأننا نحن، معشر غير الشيوعيين في الحزب كنا نراقب الحملة الانتخابية بدقة، وهذا كان من دواعي سروري. لم تُجلب جماهير منظمة إلى صفوفنا، جماهير من قبل رؤساء النقابات اليسارية. وعلى الرغم من أن أنصار الشيوعيين كانوا يحومون حول فروع الحزب وبعضهم من المرشحين، ولكنني قمت مع بانغ بون بتقليص خطر اختيار مرشحينا بانتقاء المرشحين من ذوي الثقافة الصينية بكثير من العناية والحرص. لم يكن هناك ليم تشين سيونغ كي يهيمن على الجماهير.

لم يكن أونغ إينغ غوان بديلاً سيئاً لليم تشين سيونغ كناطق بلغة الهوكين أمام اجتماعاتنا الحاشدة. ولكن بانغ بونغ كان ضليعاً بلغة الهوكين أيضاً بوصفه من الماندرين. وكانت لغتي الماندرين قد تحسنت وإن لم تكن جيدة للخطابة. كانت كافية للتعبير عن أفكاري بدون نص. قد أكرر ما قلته بالإنكليزية أو لغة المالايو وبدرجة أقل بلغة الماندرين، ولكنني كنت أكسب احترام الناطقين بالصينية لجهدي في التحدث بلغتهم. وهذا يصح على تشين تشي أيضاً، الرجل القصير حيث لا يتجاوز طوله خمسة أقدام ولكنه حيوي على المنصة. كانت لغته أضعف من لغتي ولكن الجماهير كانت تهتف لنا لأننا كنا نقوم بجهد من أجل التواصل معهم.

كان وزراؤنا القادمون، بعد كسب الأصوات، مزيجاً غريباً. تحول راجا إلى تلميذ نجيب، يتحدث الإنكليزية بطلاقة. كما كان يتحدث لغة السوق المالاوية ويصل إلى مقصده من خلال صوته الجهوري ولغة جسده المعبرة. من ناحية أخرى كان كينغ سوي مرعباً، فبعقلية رجل في الصف الأول كان يحضر خطبه بتدقيق شديد في التفاصيل، ويلقيها بطريقة مملة، وهو يقرأ النص مكتوباً. كان مملاً.

في مجتمع خليط كان لدينا مشكلة لا مفر منها. فبعض خطبائنا كانوا خطباء جيدين ولكن لم يكن بعضهم قادراً على تحريك الجمهور كله. كان جزء من الجمهور يستطيع أن يفهمه، لذا كان عليه أن يتواصل مع الآخرين بالإشارات وتعابير الوجه ونبرة الصوت.

كانت لغة السوق المالاوية هي الأبسط والأكثر استيعاباً، وكان أفضل الناطقين بها يعقوب بن محمد حيث كان يتمتع بالقدرة على إيصال ما يريد إلى الجمهور بطريقة درامية ذكية بحيث إنه كان يصل حتى إلى غير المالاويين. وكان يستشهد بمثل مالاوي من تيرمانغانو، الأرض التي جاء منها، يقول: «الدجاجة تضع بيضة واحدة فتسمع القرية كلها صوت نقيقها، أما السلحفاة فتضع بيوضاً كثيرة بدون أن يسمع لها صوت». بعبارة أخرى لقد أعطى حزبنا الكثير من الفوائد، ولكنه لم يتشدق بها أبداً. وهذا ما جلب كثيراً من التأييد من جانب الجمهور. كان ذلك قبل استخدام التلفاز عندما كان الصوت الجهوري القوي والحضور الجماهيري مزايا بيّنة.

كان يعقوب من أصل متواضع. ولد في شمال المالايو، وتعلم في مدرسة دينية محلية، كان يقود جراراً للجيش الهندي أثناء الحرب، وعندما جاء إلى سنغافورة في بداية الخمسينيات عمل حلاقاً قبل أن يصبح أستاذ ديانة. انضم إلى حزب مالاوي قومي متطرف، وتحول إلى UMNO عام 1954، ولما وجده حزباً محافظاً جداً ولا يتبنى المساواة، فقد تحول إلى حزبنا (حزب العمل الشعبي) عام 1957. عينته فيما بعد سكرتيراً في البرلمان، ثم وزير دولة. كان ذخراً كبيراً مع

المالاويين. كان نهوضه من قاع السلّم إحدى أمارات تلك الفترات الثورية. كان النظام القديم قد فقدَ قوته، والمجتمع في حالة تغير مستمر، واستنتج كثير من الرجال والنساء غير المتعلمين والمتعلمات من الطبقة العاملة الفرصة كي يصعدوا إلى القمة بفضل المقدرة والطاقة والحظ.

كانت غالبية الشعب من الفقراء، وكثير منهم كانوا يسكنون الأكواخ، ولما كنا حزباً عمالياً فقد كنا لا نتلقى إلا القليل من التبرعات من الأغنياء تساعدنا على متابعة حملتنا الانتخابية بشكل حسن. ولكن اعتمادنا الأساسي كان على التعاطف الحقيقي من جانب الجماهير. وكان المرشحون القادرون منا ينفقون من جيوبهم على الحملة الانتخابية. وكانت المنشورات الدعائية التي يوزعها الحزب متساوية بين الجميع. وبالإضافة إلى ذلك كان الحزب يستأجر بعض الشاحنات أو العربات الخفيفة المكشوفة لاستخدامها كمنصات للخطباء. هذا بالإضافة إلى الشاحنات والعربات التي يملكها بعض مؤيدي الحزب والتي كانوا يقدمونها لأغراض الحملة مجاناً. حتى مكبرات الصوت كنا نستعيرها من بعض مؤيدينا.

وكانت الحملة الانتخابية تقتضي التوغل في زوايا مظلمة من سنغافورة لا يتحدث سكانها الإنكليزية عادة. وكانت تصادفنا أكوام الزبالة، والمجاري الفائضة ذات الرائحة الكريهة، والفئران. وفي الليل كانت تخرج الصقور من أوكارها وتطير فوق أماكن تجمعنا وتجمهرنا. أما في المناطق الريفية مثل بانغول، وسيمبا وانغ ويوتشو فكانت رائحة روث الخنازير تزكم الأنوف. كانت حملة ساخنة ومنهكة. كان عليّ أن ألقي ثلاث أو أربع خطب في ليلة واحدة، متنقلاً من منطقة إلى أخرى، وأن أحضر اجتماعات تمتد لبضع ساعات. ولحسن الحظ أنني أقلعت عن التدخين ولم أفقد صوتي. ولكن في الليالي الحارة كنت أتصبب عرقاً وأنا أتحدث وأخطب بلغتين وأحياناً بثلاث لغات (المالاوية، ولغة الماندرين، والإنكليزية). وعندما يكون الجمهور كبيراً ودافئاً ومتجاوباً كنت أطيل فترة خطبتي لأكثر من 30 دقيقة. وكنت أجعل كلمتي غالباً في نهاية الاجتماع

الجماهيري لأن الجمهور يبدأ بالمغادرة عادة بعد أن يلقي المتحدث الرئيسي كلمته. وكانت زوجتي تشو تزودني بالملابس النظيفة بعد كل اجتماع. وأصبحت الآن أسافر بشعور من التباهي. إذ ما إن قررنا في شباط 1959 أن نناضل كي نكسب حتى اشترت سيارة مرسيدس بنز 220 لتحل محل سيارتنا الستوديبيكر العتيقة. وكانت تريد أن يعرف الجميع أننا نستطيع أن نقتني سيارة مرسيدس حتى قبل أن أصبح رئيساً للوزراء، وكانت ترافقني في المسيرات واللقاءات الجماهيرية وتقود السيارة بنفسها أحياناً.

كانت حشود تجمعات حزبي «تحالف شعب سنغافورة» و«الاشتراكي الليبرالي» محبطة وغير مشجعة. كانا يجذبان الجماهير الفقيرة جداً، ولم يعقدا أية تجمعات كبيرة. لم يكن المتحدثون بالإنكليزية يهتمون كثيراً بمثل هذه التجمعات والحشود الانتخابية، ولا بالوقوف طويلاً لسماع الخطب. أما العمال الذين يتحدثون الصينية فقد كانوا يمضون معظم أوقاتهم في الشوارع على أية حال لأن بيوتهم فقيرة وغير مريحة، وغالباً ما تكون عبارة عن أكواخ بائسة شديدة الحرارة. وكانت الاجتماعات الانتخابية التي تجري في الهواء الطلق بالنسبة لهم، حيث يجري الحديث باللغة الصينية أو لغة الماندرين، متعة مجانية فضلاً عما تُحييه من آمال في مستقبلهم.

هذه الحشود الضخمة كانت ذات طابع متنوع وألوان زاهية. فالانتخابات تجذب أناساً من ذوي العادات الثقافية المختلفة والممارسات التي تعكس اختلاف أعراقنا في تقاليدهم. فالصينيون كانوا يعبرون عن تأييدهم لمرشحيهم بتقديمهم رايات حريرية لهم بأنفسهم. وبعد أن يستلم المرشح الراية مع انحناءة شخصية علامة للترحيب، يأتي دور الصور التذكارية. والمرشح الشعبي يستطيع أن يجمع ما بين 50 إلى مئة راية صينية. وكل راية تحمل اسم المانح سواء أكان فرداً أم جمعية أم أي اتحاد آخر.

أما الهنود فكانوا يقدمون باقات من الزهور الحقيقية ضمن باقة بيضاء أو موشحة بالألوان. وفي بعض المناسبات كنت أتلقى ما بين ست باقات إلى اثنتي عشرة باقة ضمن إطار مدور يوشحون بها عنقي حتى أكاد لا أرى شيئاً حولي. ومن حسن الحظ أنني لم أكن حساساً تجاه الزهور التي كانوا يستخدمونها (إذ يمكن أن تحدث أسوأ الأشياء. وينبغي ألا ننسى أن راجيف غاندي، رئيس وزراء الهند، قد اغتيل على يد امرأة اقتربت منه في حشد انتخابي لا لتطوق عنقه بالزهور فقط، بل ولترميه بالمتفجرات التي كانت تخفيها في جسدها).

أما المالاويون فكانوا يقدمون «الطانجق» وهو لباس للرأس من الحرير المطرز بخيوط من الفضة أو الذهب، يرتديه أصحابه عادة، وهم من أثرياء القوم، في المناسبات الاحتفالية. وقد كان هذا اللباس نادراً ومكلفاً.

في خطابي أمام ما يقارب ألفي عامل في ساحة مكشوفة خارج القاعدة البحرية في سيمباوانغ في 17 أيار، أكدت على ألا يخافوا على أعمالهم عندما نستلم السلطة. نحن لا نسعى إلى استقلال منفصل لسنغافورة، ولهذا وافقنا على أن يحتفظ البريطانيون بالسيادة على قواعدهم حتى نندمج مع اتحاد المالايو. وهذا ما طمأن 45 ألف عامل مدني يعملون في الخدمات العسكرية. فمعظمهم من الهنود الذين جاؤوا من الهند مع القوات البريطانية، ولهم حق التصويت.

في حشد جرى وقت الغداء في «كليفورد بير» شرحت لماذا سنحافظ على «قانون المحافظة على الأمن العام» إذا ما استلمنا السلطة، مؤكداً على أن الصراع الآن بات بين حزبنا و"الحزب الشيوعي المالاوي» (MCP).

وأعدت إلى الأذهان كيف تعرض مارشال من قبل، وكذلك ليم يوهوك لمظاهرات الشيوعيين وإهاناتهم واستخدام السلاح ضدهما، إلى أن تدخلت القوات البريطانية وسيطرت على الموقف. قلت بجرأة: «حكومة حزبنا لن تقع في مثل هذه الأخطاء، ولن نتعرض للإهانة والضرب، كما لن نستخدم القمع كوسيلة للحكم. سنحكم بإرادة الشعب وتأييده، بقوة وحكمة وعدالة». كنت أريد أن أتجنب أية تهمة بكسب الانتخابات عن طريق إدعاءات زائفة.

حافظ غود على التواصل معي بعد المؤتمر الدستوري في لندن، في أيار من عام 1958، وكان يعطيني دوماً الفرص، في القضايا التي تهم مستقبل الحكومة، للتعبير عن وجهات نظري. فقد طلب مني على سبيل المثال ما هو رأيي في اختيار جون وياث كمسؤول أول عن العدالة لسد الثغرة حتى فترة ما بعد الانتخابات حيث ستصبح التعيينات في يد رئيس الوزراء الجديد. لم يكن البريطانيون يريدون القيام بأية تعيينات قد نلغيها فيما بعد. لم أعترض على واحد منها. وسوف تهتف أمينة سره، باميلا هيكلي، لتشو لتسأل ما إذا كان من المناسب بالنسبة لي أن أقابل الحاكم في وقت شرب الشاي عادة. سأقابله في جناح المكتب في مقر الحكومة في الطابق الثاني (الذي شغلته منذ 1971) سوف يتحدث لمدة ساعة أثناء شرب الشاي الذي يُصب عادة من إبريق ذي طابع بريطاني فضي اللون، ويُخلط مع الحليب والسكر. استمرت اللقاءات حتى أثناء الحملة الانتخابية. عندما أغاظني مرة بسحب تأييده لليم يوهوك والآخرين كمن يأخذ لعبة من يد طفل؛ حذرته فيما كانت الحملة تزداد سخونة أنه من المستحيل بالنسبة لنا أن نحافظ على بياناتنا السياسة في «المهمات القادمة» أكدت له أننا سنبقى ملتزمين بقوة ببرنامجنا.

يوم الانتخابات هو السبت 30 أيار 1959 كان هادئاً ومنضبطاً، خلافاً لانتخابات نيسان 1955. لم ألجأ إلى التشريع الذي أجازه ليم يوهوك بجعل التصويت إلزامياً، إذ من غير الجائز قانونياً حمل المُنتخبين بالسيارات إلى مراكز الاقتراع. ولم نسمح باستخدام النفوذ في غير محله، أو الإكراه، أو الرشوة أو الفساد. انتهت عملية الانتخابات في الساعة الثامنة مساء. وبدأت عملية فرز الأصوات في سبع مراكز من الساعة التاسعة مساء، وانتهت في الساعة 2.25 صباحاً.

فزنا بثلاثة وأربعين مقعداً من أصل 51مقعداً، أي 53.4% من أصوات 90% ممن مارسوا الانتخاب. وكسب حزب «تحالف شعب سنغافورة» (SPA) أربع مقاعد، و«المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» ـ UMNO ثلاث مقاعد، والمستقلون

صوتاً واحداً (أ.ب. راجاه) وفاز ليم يوهوك في كيرنهيل (ضد مارشال) وفاز حميد جومات في غيلانغ سيراي. وقلت في مؤتمر صحفي: «اختيار الشعب واضح وحاسم. إنه انتصار للحق ضد الظلم.، والخير ضد الشر». وكان المرشح الذي فاز بأكبر عدد من الأصوات هو أونغ إينغ غوان، المحافظ السابق. وبرهن ناخبوه في تشاينا تاون على تجاوزه للآخرين وهذا ما زاد من شعوره بالزهو والغرور.

19. استلام السلطة

كان انتصاراً لنا ولكنني لم أكن فرحاً. بدأت أتحقق من عبء المشكلات التي سنواجهها ـ كالبطالة والتوقعات العالية لنتائج سريعة، وإزعاج الشيوعيين، ومزيد من التخريب في المدارس والنقابات والاتحادات، ومزيد من الإضرابات، وقلة الاستثمارات، وارتفاع البطالة، ومزيد من الاضرابات.

أما ليم تشينغ سيونغ وفونغ سوي سوان فسرعان ما سيعملان على أرضية الناطقين بالصينية ثانية للإطاحة بنا. وعندما أرسل إلي لينوكس ـ بويد تهانيه، أجبته:

«قلة من الناس تعرف مخاطر الرحلة التي شرعت بها الآن دولة سنغافورة. النتيجة التي سنصل إليها بعد خمس سنوات ستعتمد على كيفية تخطيطنا وعملنا الدؤوب، وعلى حسن فهم حكومة المملكة المتحدة لما يجري ولماذا، وعلى الآلهة الذين يوجد الكثير منهم في هذه الجزيرة الصغيرة ذات الـ 220 ميلاً مربعاً. العامل الأول أن نصمم، والعامل الثاني يعتمد عليكم، أما العامل الثالث فأتركه لشعب سنغافورة لاتخاذ التعويذات وطلب البركات الإلهية لنا».

كان ثمة عامل رابع ـ موقف جيراننا في الشمال. كان أول من هنأني علانية رئيس وزراء الملايو. «شعب سنغافورة كان اختياره واضحاً. أهنئ «حزب العمل الشعبي» على كسبه هذه الأغلبية الكبيرة» ولكن هذا لم يكن تونكو، بل داتو عبد الرزاق بن حسين، الذي يحل محل التونكو عندما يغيب. كان أقل دبلوماسية إذ قال:

«انتصارهم كان متوقعاً. فالأحزاب الأخرى كانت مشتتة وغير قادرة على تشكيل معارضة «لحزب العمل الشعبي». أنا سعيد بنجاح صديقي تون ليم هوك. فهو على الأقل سيشكل معارضة قوية للحكومة. ومن جهة ثانية فإن المعارضة ينبغي أن تكون فعالة، وأن تتوحد ولو خارج المجلس وإلا فإن الموقف سيظل على حاله».

تلقيت كثيراً من رسائل التهاني من أناس كانوا يتعاطفون معي، بمن في ذلك البطلة البارزة في مقارعة الاستعمار في «الجمعية الفابية»، السيدة هيلدا سيلوين كلارك التي أخبرت ضابط «الفرع الخاص» في سنغافورة، ريتشارد كوريدون، أنني اشتراكي جيد، ولست شيوعياً. وقد بعث إلي جيمس كلاهان، عضو حزب العمال البريطاني، وفيما بعد رئيس الوزراء، الصديق الذي زار سنغافورة في الخمسينيات وكان يعرف المنطقة، برسالة تهنئة يحذرني فيها: «أعرف أن من خلال اتصالاتي هنا كم هي حكومة الاتحاد حساسة، وعليك أن تكون حاسماً. فرد فعل الصحافة هنا متنوع. وثمة مخاوف من أولئك الذين لا يفهمون الوضع».

كنا قد فكرنا ملياً قبل الانتخابات في موضوع ليم تشين سيونغ ورفاقه، واستخلصنا أنه ينبغي العمل على إطلاق سراحهم من السجن قبل أن نستلم السلطة، وإلا فسنخسر مصداقيتنا.

ولكن بعد أن ناضلنا وكسبنا الانتخابات، قررنا أن نشكل الحكومة أولاً لتأكيد انتصارنا قبل أن نعمل على تحريرهم واستئناف الصراع.

قررنا أن نشكلها في بادانغ في يوم الأربعاء، 3حزيران. وقد طلبت من الحاكم أن يُطلق سراح المعتقلين الثمانية في اليوم الذي يلي الاجتماع الجماهيري، ولكن قبل أن نؤدي اليمين القانونية لاستلام الحكم. وكان غود (الحاكم) يريد أن نستنح الفرصة على الفور، ولكن اهتمامي كان محصوراً بمعالجة الأمور، وجعل البريطانيين يوافقون على إطلاق سراحهم، وتشكيل حكومتي، وعقد الاجتماع

الجماهيري أولاً. واحتج غود بأنه يجب أن يشاور لندن بشأن إطلاق سراحهم، مما كان سيعني وجود ثغرة في حكومتي لأن ليم يوهوك استقال في اللحظة التي خسر فيها الانتخابات. لم يكن سعيداً بالتأخير، ولكنني ألحيت عليه بأن يعطيني الوقت الذي أحتاجه لأجعل غير الشيوعيين في موقف أقوى قبل أن تبدأ الجولة الثانية. لم أكن أتوقع أية أزمة فورية. ففي اليوم التالي أخبرني أن لندن وافقت على إطلاق سراح الموقوفين، ولكنه عندما كرر رغبته في تشكيل الحكومة بسرعة قلت له: إن علي أن أتشاور مع زملائي.

التقيت أعضاء اللجنة التنفيذية المركزية في مقر قيادة الحزب بعد ظهر ذلك اليوم لمدة ساعة، وعدت إلى مقر الحكومة في الساعة الرابعة بعد الظهر. وبعد ذلك أصدر جورج طومسون، مدير خدمات الاستعلامات بياناً للصحافة جاء فيه بعد لقاءين استمرا ساعتين «وبعد مشاورات مع حكومة جلالتها في بريطانيا، ومن أجل إصدار إفراج سريع وسهل للدستور الجديد، قرر الحاكم بالتشاور مع أعضاء المجلس السابقين الإفراج عن المحتجزين المعنيين». وكان غود قد أخبرني أنه لا يستطيع الانتظار حتى يحدث ذلك، وأنه سينشر ويضع الدستور الجديد موضع التنفيذ في 3حزيران. وأكدت ثانية أنه ينبغي أن نقسم.

جرى الاجتماع الحاشد أمام سيتي هول مساء يوم 3 حزيران بدون حضور الموالين للشيوعيين. كان على المنصة 43 عضواً من أعضاء البرلمان المنتخبين، وكان جميعهم يرتدون الملابس البيضاء.

وفي الخامس من حزيران، بعد أن يُحرر ليم تشين سيونغ وفونغ والستة الآخرون الموالون للشيوعيين وأن يصدروا بياناً يقر علانية أهداف غير الشيوعيين من حزبنا (PAP) أردت لذلك التأكيد أن يحظى بتغطية كاملة في الصحافة، ولهذا سوف نستلم السلطة بعد الظهر الساعة الخامسة. لم يوافق غود، ولكنني أصريت على موقفي وحققت منالي.

قدمت للجمهور حكومتي المؤلفة من تسع أعضاء وأنا من بينهم. وألقيت

خطبة جدية صارمة بعض الشيء. كان هناك حشد من الجماهير ينوف على خمسين ألفاً من بادانغ. لن يكون هناك فساد كما كان عليه الحال في الماضي في سنغافورة وفي كثير من البلدان الجديدة. لخصت موقف حكومتنا على الشكل التالي:

«سنبدأ فصلاً جديداً. وستكون سلطات شعبنا من خلال حكومته المنتخبة، مقتصرة على الشؤون الداخلية. وليس هذا ما نريده حقاً، ولكنه خطوة نحو الاندماج و«ميرديكا»... فالأشياء الجيدة في الحياة لا تهبط من السماء. وإنما تأتي بجهودنا على مدى طويل. الحكومة لا تستطيع أن تعطي نتائج إلا إذا ساندها الشعب واستمر في العمل معها.. يمكن أن تأتي أوقات تتخذ فيها قرارات غير شعبية بالنسبة لجانب من الجمهور، ولكنها في مصلحة المجتمع ككل. في مثل هذه المناسبات، تذكروا أن المبدأ الذي يرشد أفعالنا هو الصالح العام للمجتمع كله وهذا ما يجب أن يسود».

ووجهت إلى الجماعة البريطانية هذا التحذير:

«تعلمون أننا أردنا أن نستخدم هذا المكان (بادانغ) من أجل مهرجاناتنا الانتخابية ليلاً، ولكن مجموعة صغيرة من الأوروبيين الذين مُنحت لهم هذه الأرض من قبل الحكومة الاستعمارية السابقة رفضت ذلك، رغم أنها لا تستخدم هذا الميدان إلا في النهار من أجل أن يلعب فيه قلة من الأفراد! حسناً الظروف تغيرت وستظل تتغير».

استغليت الفرصة كي أُثبط آمالهم وأُحضّر دفاعي ضد الهجمات التي كنت أعرف أنها ستأتي من جانب الشيوعيين. كانوا يضغطون من أجل مزيد من الحرية لكي يخربوا سنغافورة ويستخدموا قوتهم في الجزيرة لمساعدة الثورة في الملايو.

في أمسية المهرجان الجماهيري ذهب دينيس إلى شانغي ليُخبر المعتقلين بأنه سيتم الإفراج عنهم يوم الخميس الساعة 8.30 بعد الظهر في 4 حزيران، خرج ليم تشين سيونغ، وفونغ، ونير، وودهال، وبوتو تشيري وثلاثة آخرون إلى خارج السجن ليجدوا قرابة ألفي شخص من حزبنا ومن النقابات، الذين كانوا ينتظرون خارجاً لتحيتهم والتلويح لهم بالرايات. ثم نقلوا إلى قيادة الحزب حيث التقوا باللجنة التنفيذية المركزية الجديدة. كما واجهوا رجال الصحافة في الساعة 11 صباحاً وألقى نير باسمهم بياناً يؤيد وحدة سنغافورة والمالايو.

في خطبة مهمة قال كينغ سوي الناطق بالإنكليزية: إنهم تقيدوا كثيراً بالصحف الناطقة بالإنكليزية، وبالكنائس، ولا سيما الكنيسة الكاثوليكية. الذين صوتوا كطبقة ضد حزبنا، ولكنهم كانوا قلة، وحذرهم أنهم سيخسرون مع الوقت امتيازاتهم التي تمتعوا بها في ظل الحكم البريطاني وعليهم أن ينافسوا ضمن شروط متكافئة مع كل شخص في سنغافورة. ومن أجل البقاء عليهم أن يحاولوا فهم أن التغييرات الجارية التي كانت رداً على قوى اجتماعية هائلة تكمن تحت السطح، وليست مكائد السياسيين.

لم تنشر «ستريت تايمز» ولا «ستاندارد سنغافورة» تقارير صحيحة حول تحليلنا لأسباب الاضطراب السياسي، وبالتالي كنا غير قادرين أبداً على جعل الناطقين بالإنكليزية يفهمون أن المظالم الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية العميقة كانت تقود الناطقين بالصينية إلى تأييد الشيوعيين ومساعدتهم على الإطاحة بالنظام القائم. الآن وقد أصبحنا في الحكم عليهم أن يصغوا، وعلى الصحافة البريطانية أن تنشر ما قلناه. وهكذا بدأنا ننفذ سياستنا، وهي عملية بدأت تلك الليلة بخطبة كينغ سوي.

وفي اليوم التالي نشرت الصحف بيانهم:

«من أجل تحقيق تطابق كامل مع هدف دولة مالاوية موحدة، والنضال بوسائل سلمية وديمقراطية ودستورية من أجل الهدف الأسمى لدولة مالايو موحدة ومستقلة وديمقراطية وغير شيوعية أو اشتراكية... سيكون

ليم تشين سيونغ (جالساً) وفونغ سوي سوان في مقر قيادة حزب العمل الشعبي، يدليا بتصريحهما للصحافة بعد أن حرر في 4 حزيران 1959

من الخطأ اعتبار عدم انضمام سنغافورة إلى اتحاد المالايو المستقل يعود فقط إلى الخداع البريطاني. فالبريطانيون بالطبع لا يستطيعون التهرب من نصيبهم من المسؤولية عن هذا البتر القاسي.. وتبقى الحقيقة أن استبعاد سنغافورة هو أيضاً انعكاس للخوف الحقيقي للغالبية المالاوية في الاتحاد بأن الغالبية الصينية في سنغافورة غير قادرة على الولاء لمالايو مركزية، ولا تستطيع أن تُستوعب داخل قومية ذات تمركز مالاوي... ويعود إلينا في سنغافورة أن نبرهن أن المخاوف والشكوك لدى إخوتنا المالاويين لا أساس لها».

عندما سُئل نير ما إذا كانوا يؤيدون «استخدام قانون الأمن العام» أجاب نير: «موقفنا هو مثل موقف حزب العمل الشعبي» أي أنهم سيحافظون على القوانين القائمة طالما أن اتحاد المالايو لديه قوانين تجيز الاعتقال بدون محاكمة. وكما توقعت من نير كانت تقارير الصحافة واضحة وغير قابلة للدحض. ولكنني كنت أعلم أن ليم تشين سيونغ لم يكن صادقاً. فهذا كان بالنسبة إليه مجرد مناورة تكتيكية. كنت آمل ألا يعود فونغ إلى ليم. ولكن لم يكن بوسعي أن أتأكد. حاولت أن أُحيّدهم بإعطائهم مراكز بارزة ولكن لا فعالية لها ـ إذ عينت بوتيو شيري مديراً لهيئة الترويج الصناعي «الجديدة»، وعيّنت الأربعة الآخرين كأمناء سر سياسيين لوزراء مختلفين.

كان البريطانيون يراقبون هذه التطورات عن كثب، وكانوا تواقين إلى معرفة كيف سيكون عمل وزراء حزبنا المنتخبين حديثاً. بعث بيل غود إلى لينوكس بويد، في 12 حزيران 1959، بتقرير عن الانتخابات الذي كانت قراءته تثير الاهتمام بعد أربعين سنة:

«.. ركز حزب العمل الشعبي (PAP) على إظهار نفسه حزباً اشتراكياً ديمقراطياً لديه أفكار بناءة يتحلى بالأمانة، والطاقة والقدرة على الحكم. أكد برنامج الحزب كثيراً على الحاجة إلى العمل على الاستقلال من خلال

الاندماج مع اتحاد المالايو والحاجة إلى التنسيق بين جميع الجماعات العرقية في سنغافورة. اعتبروا المالاوية لغة عامة لكسر القيود الفئوية وعينوا تسع مرشحين مالاويين. والسمة المميزة في برنامجهم هي التأكيد على الحاجة إلى إعادة تنظيم جهاز الحكومة والمؤسسات العامة الأخرى، وإلغاء «مجلس المدينة» بشكل خاص من أجل التخلص من «بيروقراطية الاستقبالات الرسمية والتكرار غير الضروري للمهمات». وفي خطب الحزب، طور المرشحون الكثير من هذه الموضوعات كي تناسب الجمهور. ولذا كانت هناك غالباً إشارات إلى تقصير أحزاب أخرى وإلى الكراهية المفترضة للصحف الصادرة بالإنكليزية. وللسكان الناطقين بالإنكليزية، ولرجال الأعمال «البيض» ولم يكن هناك أية إدانة للدول الغربية أو الحكومة البريطانية في أي موضع...

«أفقد انقسام الصوت المعتدل المعارضة، بلا شك، الكثير من المقاعد في 13 دائرة انتخابية، إذ تحول مرشحو حزبنا إلى أقلية.. وبعد الانتخابات أقر حزبنا علانية أنه لم ينجح في كسب أصوات المالاويين أو أصوات الناطقين بالإنكليزية. فقد كان المالاويون بصورة عامة فزعين من حزبنا كونهم أكثرية صينية ولم يرتاحوا لتعهد حزبنا الجريء بجعل المالاوية لغة قومية ولفرضه تسع مرشحين مالاويين.

وفي المنافسات الانتخابية قام زعماء حزبنا بأكبر جهد ممكن للفوز ضد موظفي المدينة من الناطقين بالإنكليزية. ومع هذا فإن معظم المناطق الريفية والمأهولة الرئيسية قد تحولت إلى التصويت لحزب SPA وبعض منها قد كسبها حزبنا نظراً لأن الأصوات قد انقسمت ما بين SPA أو الاشتراكيين الليبراليين أو المستقلين..

«معظم نواب حزبنا (PAP) من الشباب، معظمهم في عشرينيات العمر. المعدل الوسطي للأعمار في «الجمعية» هو 35 سنة، وأصغر عضو في حزبنا عمره 22 عاماً. وقد هُزم ثلاثة وزراء سابقين هم: ج. م. جامبهوي

على يد فتاة في الخامسة والعشرين من العمر، مساعدة الأمين العام المساعد في القسم النسائي من حزبنا...

«وهكذا فإن الجمعية التشريعية الجديدة ستكون تحت سيطرة غالبية حزبنا. وكان من بينهم خمسة أساتذة، وأربعة صحفيين، وثمانية نقابيين، وحلاقين ومزارع. والتبدل المهم الآخر أن الوزراء الثلاثة الأوائل قد أثثوا مكاتبهم في سيتي هول».

كنا نريد فعلاً أن نقطع الصلة بالماضي بنقل مقر الحكومة من «امبريس بليس» Empress Place إلى «سيتي هول» ـ City Hall. إنه كان المكان الذي استهل فيه أونغ إنغ جوان ولايته بوصفه محافظ وسط أجواء من الشغب والاضطرابات ـ ولكنه منح فقراء سنغافورة الأمل بأن حكومة حزبنا ستعطي مصالحهم موقع الصدارة وستكون صادقة في محاولة تحسين أحوالهم.

أديت أنا وزملائي اليمين القانوني يوم الجمعة بعد الظهر في الخامس من حزيران 1959، في قاعة سيتي هول حيث قبل مونتباتين استسلام اليابانيين من القادة العسكريين اليابانيين في جنوب شرق آسيا في عام 1945 ـ وحيث ألقى المحافظ بعد اثنتي عشرة سنة من ذلك التاريخ برمز السلطة الاستعمارية البريطانية، الصولجان. أردت أن أعطي انطباعاً مشابهاً للحكومة الجديدة. فقد كان البروتوكول حتى هذا التاريخ يقضي أن يقدم الوزراء أنفسهم في «مبنى الحكومة» كي يؤدوا اليمين القانوني أمام الحاكم باللباس الرسمي الأبيض والقبضة البيضاء. أما مؤيدي الحزب الذين عملوا بدأب أثناء الحملة الانتخابية، وكانوا بدورهم يلبسون ملابس بيضاء. ولكن لم تحضر الزوجات. وقد غضبت مني زوجتي تشو في ذلك اليوم. ذلك أنها تعبت كثيراً بدورها أثناء الحملة وتوقعت أن تحضر هذا الاحتفال. حاولت أن أراضيها، ولكنها لم تكن راضية. وبقيت مصراً على موقفي.

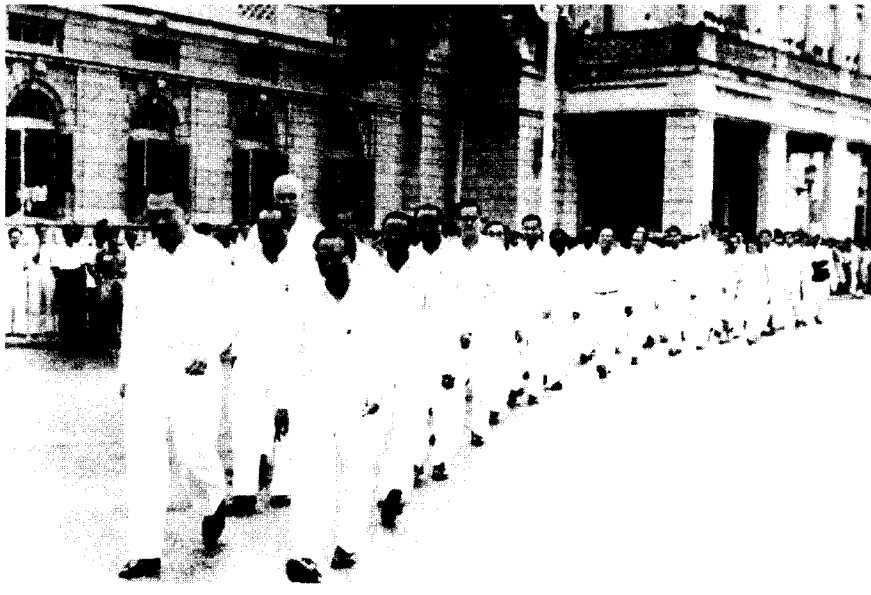

قيادة حكومة حزبنا (PAP) بعد أن أقسمت اليمين في «سيتي هول» في حزيران 1959.

بعد أن استمع غود (بوصفه رئيس الدولة) وآخر حاكم لسنغافورة لأداء القسم، قدم تهانيه إلينا. وأجبته قائلاً: «من حسن حظنا في الأيام القليلة الأخيرة أن تتاح لنا فرصة للتعامل مع شخص شديد التعاطف مع آمال ومطامح شعبنا وصعوبات وضعنا.. آمل في الأشهر الستة التالية من ولايتكم أن تساعدنا في تولي زمام أمور الحكم في سنغافورة بفعالية وسلاسة».

وبعد أداء اليمين كان كل واحد منا متحمساً للعمل ولتحمل مسؤولياته بمصداقية، وذلك قبل أن تفتر الحماسة. كنا نخشى أن يسارع الشيوعيون إلى تقليص التأييد الشعبي لنا من خلال حض ليم تشين سيونغ وفونغ على إثارة القلاقل والإضرابات. كنت أعرف من خلال التجربة أن الحماسة وحدها لا تكفي.

ومن أجل أن يقدم الوزراء أفضل ما عندهم، لا بد من توفير بعض الرفاهية لهم كأن يكون لديهم مكاتب ذات تهوية مركزية. قد يبدو هذا غريباً، ولكن العمل في مناخ سنغافورة المداري بدون تهوية عسير للغاية. فالحرارة الشديدة المصحوبة بالرطوبة العالية تنهك القوى وتُضعف الإنتاج وتسبب الكثير من الأخطاء. وأذكر أن شرائي أنا وزوجتي تشو لجهاز تكييف عام 1954 لغرفة نومنا كان بمثابة نقطة تحول في حياتي. ولهذا شجعت على توفير أجهزة التكييف في جميع مكاتب الحكومة.

شغلت مكتب المحافظ في الطابق الثاني من بناء "سيتي هول" وقد شاركني فيه تشين تشي بوصفه نائب رئيس مجلس الوزراء. كان المكتب واسعاً مع غرفة استقبال وغرفة للمؤتمرات، وشغلت سكرتيرتي الغرفة الوسطى أي ما بين غرفة مكتبي وغرفة نائبي.

ولكن أونغ إينغ غوان لم يشأ أن يبقى معنا في «سيتي هول» فاختار بدلاً من ذلك بناء عاماً في دائرة هونغ ليم واتخذه مقراً لوزارته الخاصة بالتنمية الوطنية. لم أدقق في أسباب ذلك، ولذا وافقت. لم أكن أعرف أن البناء غير صالح مطلقاً كمكتب حكومي ويحتاج إلى تجديد واسع النطاق، إذ كان لا بد من

هدم الحيطان، وتغيير الأسلاك الكهربائية والمكاتب. ولكن هذه كانت بمثابة اعتبارات بسيطة بالنسبة إلى أونغ، إنها تفاصيل إدارية تجاهلها من أجل سعيه إلى مركز منفصل للسلطة. لم يكن يرغب في أن يتشارك مجد «سيتي هول» مع تشين تشي ومعي. وبعد بضعة شهور فقط تأكد لي أن جنون العظمة لديه لا حد له. كان يريد أن يفوق أي شخص آخر في الحكومة، وأن يجعل نفسه في أعين الجمهور على النحو الذي كان عليه عندما شغل منصب محافظ. ومن أجل هذه الغاية أعلن عن خطط لإنفاق واسع بدون أن يراجع ذلك مع وزير المالية أو الحكومة، وأثار ذعر باقي الوزراء.

أما كينغ سوي الذي شغل منصب وزير المالية فقد انتقل إلى بناء «فوليرتون». كان خبيراً بشؤون الخدمات المدنية. ولما كانت المالية أهم وزاراتنا فقد سمحت له أن ينتقي موظفيه. وقد اختار معاوناً دائماً له هون سيوي سين، وهو صديق مخلص لي منذ أيام الاحتلال الياباني. ولقد كنا محظوظين باختيار أشخاص من أمثال سيوسن ممن يعتبرون كتلة من النشاط. فقد كان أمامنا كثير من العمل، وقليل من الموارد، وقليل من الوقت. لماذا قليل من الوقت؟ لأنني كنت أتوقع سنة واحدة على الأكثر من شهر العسل قبل أن يعيد الشيوعيون صفوفهم ويعودون إلى الهجوم علينا.

بعد أيام أخبرنا وزير المالية كينغ سوي أن الحكومة السابقة قد غرفت الاحتياطيات واستخدمت ما يصل إلى 20 مليون دولار. وقد توقع عجزاً في الميزانية يزيد على 14 مليون دولار في عام 1959. سيكون هناك بعض الوفورات القليلة ولكنها لن تزيد على خمسة ملايين دولار. لذا ينبغي تنبيه الوزراء أنه لا سبيل إلى تمويل أية خطط تنموية فوق ما هو مسموح به، وحتى هذه ينبغي تخفيضها. فالخطوات التي تتخذ لتحقيق التوازن في الموازنة لا تحظى بالشعبية سواء لدى الجمهور أم لدى الوزراء. ولكن كان من الملح ألا نصل إلى الخط الأحمر في السنة الأولى من حكمنا.

وافقت الوزير على سياسة التقشف وأخبرته أن من الأفضل اتخاذ الخطوات غير المرغوبة في وقت مبكر من ولايتنا. وفي 12حزيران نشرت الصحف أن وزير المالية قد أمر بعدم السماح لأي نفقات إضافية من أن تتمّ بدون موافقته. وكان من بين البنود التي طالها التقشف أيضاًالمعونات التي تقدم للموظفين لشراء سيارات، ونفقات المنح والدورات التدريبية في الخارج. ولكن جميع هذه الإجراءات لم تكن توفر كثيراً. اقترح وزير المالية كينغ سوي تخفيض رواتب الوزراء من 2600 دولار إلى ألفي دولار في الشهر كي يعطوا مثلاً للآخرين، وكذلك تخفيض علاوات الموظفين، وافقت على ذلك. ناقشنا هذه الإجراءات في المجلس وقررنا المضي قدماً مهما كلف الأمر. وأعلنت الحكومة أن العلاوات ستنخفض ابتداءً من الأول من تموز (يوليو)، ولكنها ستقبل مراجعات حول الموضوع من جانب النقابات والاتحادات.

كانت الوفورات جيدة ولكنها ليست قاسية، إذ أنها لم تشمل إلا ستة آلاف موظف من بين موظفي الحكومة البالغ عددهم 14 ألف موظف. فإن جميع الموظفين الذين يتقاضون 2200 دولاراً في الشهر وما فوق سيفقدون جزءاً من علاواتهم الفعلية، ولكن 10% منهم فقط سيعانون من اقتطاع جزء من علاواتهم تزيد على 250 دولاراً في الشهر، وقلة قليلة ستفقد 400 دولار كحد أقصى. فقد أُعفي 8 آلاف موظف من موظفي الدرجات الدنيا من أية استقطاعات. كان علينا أن نتصرف بسرعة إذا أردنا لأمورنا المالية أن تنتظم منذ البداية. كان هناك استياء كبير ولاسيما في أوساط كبار الموظفين. اعتقد أصحاب الثقافة الإنكليزية أننا فعلنا ذلك لمعاقبتهم لأنهم لم يؤيدونا في الانتخابات. لم يكن ذلك قصدنا. بل أردنا أن نبين لكل فرد في سنغافورة، ولاسيما الأكثرية الناطقة بالصينية أن ما نفعله لصالح الشعب. وقد كان الناطقون بالإنكليزية مستعدين للقيام بتضحيات يتزعمها الوزراء. ووجدت من المعقول أن يقوموا بمثل هذه التضحية كي يساعدونا في إيصال الرسالة، ففي هذه المرحلة الجديدة علينا أن نتقاسم الأتراح والأفراح على حد سواء.

كان ثمة سبب آخر وجيه للاستقطاعات. فمنذ 1952 ضغطت باسم النقابات، فيما ضغط كينغ سوي وكيني باسم الموظفين، على الحكومة من أجل دفع مزيد من العلاوات دون اهتمام يذكر بالوضع الاقتصادي. ولو فعلت النقابات ذلك لكنا وقعنا في ورطة. ولكن من حسن الحظ أن تلك السنوات قد مضت.

وصل التوفير السنوي إلى 12 مليون دولار. ودحض كينغ سوي تقديرات الصحف بأن الوفورات وصلت إلى ما يتراوح بين 20 و25 مليون دولار، وذكرها بأن الوفورات بالنسبة للأشهر الستة الباقية من 1959 ستكون فقط بحدود 6 مليون دولار، مما يُخفض العجز من 14 مليون دولار إلى 8 ملايين دولار.

وبعد بضعة أيام أعلن الوزير تجميد التعيينات، مما كان يعني حصول شواغر في الحكومة لا يمكن إشغالها بدون موافقة الوزير.

تكاتفت ضدنا نقابات الخدمات المدنية. ونظمت مجلساً للعمل المشترك لمجابهتنا، تماماً كما جابهنا الإدارة الاستعمارية البريطانية من قبل، وللنضال من أجل إعادة العلاوات كاملة. ولكننا لم نكن حكومة استعمارية في موقف دفاع، في هذه اللحظة على الأقل، فالأغلبية الناطقة بالصينية كانت تقف وراءنا بصلابة. ولم يستطع مجلسهم أن يفعل شيئاً. كانت البلاد تجابه صعوبات ومخاطر أكبر، وكان علينا أن نقنع شعبنا أن هذه الحكومة تحكم لصالح الجميع. وعندئذ فقط نكون قادرين على معالجة نقص الوعي المالاوي بين الصينيين، وجعلهم يتشربون فكرة الولاء، والالتزام تجاه الدولة التي تبنتهم، وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية، إذ عليهم أن يغيروا موقفهم قبل أن يوافق الزعماء المالاويين في كوالا لامبور على الاندماج ويمكنوا سنغافورة من تحقيق استقلالها كجزء من المالايو.

وعندما ألقيت أول خطبة لي في الجمعية بوصفي رئيساً للوزراء في 22 تموز قلت محذراً: «إذا أخفقت حكومة حزبنا فلا يمكن للمعارضة أن تعود إلى السلطة. بل سيكون ثمة انفلات للأمور في البلاد. إذ لا يوجد بديل لنا مستعد للعمل وفقاً للنظام الديمقراطي. وفي التحليل الأخير إذا فشلنا ستعود القوى المتوحشة». وقلت: لهذا نريد أن نتعاون مع الموظفين من أجل أن نقدم للشعب ما وعدناه به.

لماذا نؤذي الشعب الذي ينبغي أن يعمل معنا؟ فمبوجب نظام ديمقراطي هناك خدمة مدنية تعطي الإيحاء للحزب الذي لديه الوصاية على الشعب... وإذا لم يحدث ما هو أسوأ من فقدان العلاوات... فعلى موظفي الحكومة أن ينحنوا ويشكروا الله إذ أنهم ما زالوا أحياء.

وأضفت قائلاً: بسبب التاريخ فإن ذوي الثقافة البريطانية يستطيعون أن يلعبوا دوراً كبيراً. وإنهم يستطيعون مساعدتنا في جَسْرِ الهوة ما بين الماضي الاستعماري والحاضر الذي يعمل على تحقيق المساواة. وإذا فشلنا في ردم الهوة ما بين الناطقين بالصينية والناطقين بالإنكليزية فستكون النتيجة مؤلمة. إذ لو استلم المثقفون الصينيون السلطة فإن الناطقين بالإنكليزية سيجدون أنفسهم فجأة المنبوذين الجدد تحت حكم إدارة صينية.

ومن وقت إلى آخر كنت أتابع توبيخ الناطقين بالإنكليزية وأطلب منهم أن يتغيروا لمواجهة المستقبل.

كنا ـ كينغ سوي وكيني وراجا، وأنا ـ من ذوي الثقافة الإنكليزية قادتهم الطبيعيين. لم نكن نريد لهم أن يكونوا هامدين، ولكننا في الوقت نفسه سنستعين بالصينيين إذا كانوا يريدون التخلص منا. ولكن الناطقين بالإنكليزية كانوا على درجة كبيرة من عدم التسيّس بحيث إنهم لم يفهموا الخطر الذي يحيط بهم. ورغم استعادة الاستقطاعات كلياً عام 1961 فقد ظل الموظفون الكبار ناقمين لفترة طويلة، وكانوا ينتظرون الفرصة للإطاحة بنا. فقد صوتوا بقوة ضد حزبنا في انتخابات 1963. ولكن التهديد من جانب الشيوعيين كان آنذاك واضحاً للغاية، بحيث لم يكن بوسعهم إلا تأييدنا.

في نهاية العام كنا قادرين على تحقيق التوازن في الميزانية ولم تعد العائدات تتناقص كما كان يخشى كينغ سوي. لقد أظهرت الأحداث بأن الناطقين بالإنكليزية ينقصهم الوعي السياسي وأنهم يحتاجون إلى إعادة توجيه لجعلهم يعون المخاطر والصعوبات أمامهم. وهذا ما أكد ضرورة القرار الذي قد اتخذته

أنا وكينغ سوي وكيني، قبل استلام السلطة، بإنشاء مركز للدراسات السياسية لتعليم وتأهيل كبار الموظفين المدنيين وتوعيتهم بالتهديد الشيوعي وبمشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية. ولكي ننجح كان علينا أن نكسب ثقتهم أولاً وندرك أنهم ليسوا مجرد أشخاص لا يفكرون.

اخترنا جورج طومسون لإدارة المركز، وهو رجل في الأربعينيات من العمر، يتمتع بذهن صاف، ومتحدث ممتاز كان محاضراً في التاريخ، دؤوباً ومتحمساً للعمل، فهذا ما كنا نرمي إليه وسرعان ما عرف ما أنيط به. وتم اختيار موقع المركز في بناء يقع في غودوود هيل. وقمت بافتتاحه في 15 آب (أغسطس)، وشرحت أهدافه على النحو التالي:

«ليست الأهداف فقط أن نحث أذهانكم، بل لنحيطكم علماً بالمشكلات الحادة التي تواجه أية حكومة منتخبة شعبياً في وضع ثوري... وعندما تواجهكم مثل هذه المشكلات ستكونون أكثر قدرة على مساعدتنا في إيجاد الحلول لها، بجعل الإدارة أكثر حساسية واستجابة، لحاجات الناس وأمزجتهم».

كنت وبعض الوزراء نتردد على المركز لتحقيق أهداف عملية من خلال مناقشة الأوضاع الحقيقية وإيجاد حلول فورية لها. وفي البداية كان الموظفون الذين يدرسون في المعهد متشككين بعض الشيء. ولكنهم سرعان ما تجاوبوا معنا وفهموا حقيقة المشكلات التي تواجهنا وكيفية إيجاد الحلول لها وتنفيذها. وفهموا ماذا يجري في العالم الأوسع وأسباب الثورات في جنوب شرق آسيا، والحاجة إلى اتخاذ تحول أساسي في المواقف والسياسات لمواجهة التحديات. ولكن ظلت علاقتنا بهم عسيرة.

ثمة مشكلة توقعتها وهي أن أتعود على السلطة. فقد رأيت ما حدث لأونغ إينغ غوان في «مجلس المدينة» وكيف أنه أخطأ الموظف الأدنى عندما أصبح الموظف الأعلى. فحذرتُ وزرائي وأمناء سر المجلس وأعضاءه الذين عُينوا

لمساعدة الوزراء في التعامل مع شكاوى الجمهور، من ألا ينتشوا بالسلطة وألا يسيئوا استعمالها. وكم من الأسهل أن تقول ولا تفعل، فقد كنا كثير من المناسبات نزعج الموظفين.

كنا مصممين على أن نضرب والحديد ساخن وأن نستفيد من شعبيتنا بعد الانتخابات. فقمنا بحملات واسعة لتنظيف الشوارع، واقتلاع الأماكن القذرة. وكنا نحض الجميع حتى الوزراء على أن يعملوا بأيديهم حتى ولو اتسخت ملابسهم، وذلك من أجل خدمة الشعب. استفدنا من بعض تكتيكات الشيوعيين في هذا الصدد، وحرضنا الجماهير على الانخراط في الأعمال الجماعية التطوعية كالتنظيفات والمحافظة على الأملاك العامة. وفي ذات يوم أحد كان على أونغ إينغ غوان أن يجند موظفي الحكومة لتنظيف شاطئ تشانغي. وفي مناسبة أخرى كان علي أن أنظف شوارع المدينة مع مسؤولي التنظيفات. وكان في أذهاننا أشياء أخرى نقوم بها. وقد خططت أنا وكينغ سوي وشكلنا «اتحادات شعبية» تضم كل المنظمات الاجتماعية التطوعية المهمة، والأندية، والاتحادات الرياضية، والموسيقية وغيرها. وبنينا عشرات المراكز الاجتماعية: أي مراكز كبيرة في المدن وأخرى صغيرة في المناطق الريفية ـ وأماكن للتعليم وإعادة إحياء المواهب. كنا نريد أن نقدم للناس أشياء إيجابية نقوم بها ضمن إطار النظام العام والقانون. ولكن كان علينا أيضاً أن ننظم صفوف العاملين، لأننا كنا بحاجة ماسة لإحكام قبضتنا على النقابات الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين كي نوقف إضراباتهم السياسية. لذا أوجدنا محكمة تحكيم. وفي الخمسينيات كان لدى الأوستراليين علاقات صناعية جيدة بفضل إجراءات التحكيم الإجبارية التي تضبط الانفعالات. وبناءً على طلبنا أرسلوا إلينا الأمين العام الدائم لوزارة العمل لديهم، هاري بلاند، كي يساعدنا. وبعد أن تأسست المحكمة، بات بوسع الوزير أن يحيل أي إضراب واسع النطاق، ولاسيما إذا كان يشمل الخدمات الضرورية مثل النقل العام أو المرافق العامة، إلى التحكيم. وإذا جرى ذلك سيكون من غير

عرض مثال لتنظيف سنغافورة بعد فوز حزبنا بالسلطة مباشرة.

الشرعي أن تستمر نقابة في الإضراب. وإذا أصرت على ذلك فستواجه إلغاء التسجيل. وقبل الإضراب كان لا بد من اقتراع سري، ليس برفع الأيدي في نهاية خطبة حماسية، كما كنت أشاهد قبلاً.

من ناحية أخرى، فقد شاركنا الشيوعيين وجهة نظرهم في أن أحد أسباب تخلف الصين وبقية آسيا، باستثناء اليابان، يعود لكون أن النسوة لم يتحررن بعد. إذ لا بد من أن يتساوين مع الرجال وأن يُمكّنّ من المساهمة الكاملة في المجتمع. ففي أثناء الحملة الانتخابية اعتدنا أن نستخدم إحدى إذاعاتنا المتخصصة بأربع لغات ـ الإنكليزية، ولغة المالايو، والماندرين، والتاميل ـ كي نتناول سياستنا تجاه حقوق المرأة. ولكننا لم نستطع إيجاد عضوة في حزبنا يمكن أن تتحدث الإنكليزية بطلاقة لعرض البرنامج. فبعد أن أجرتْ تشو امتحاناً لزوجتي مرشحين في مكتب «لي ولي» جاءت إلى غرفتي لتخبرني أن صوتهما رقيق جداً ولا تفيان بالغرض. ولكن بعد خروجها اقترح صديقاي أن عليها هي أن تقوم بذلك. فطلبت رأيها، وبعد برهة من التردد وافقت. كتب راجا المسودة الأولى التي عدلتها بحيث تبدو أنها هي التي كتبتها. نُقحت من قبل اللجنة التنفيذية المركزية وترجمت إلى اللغات الأخرى، وقدمتها بالإنكليزية في إذاعة المالايو. أحد المقاطع كان حاسماً:

«ما يزال مجتمعنا قائماً على افتراض أن النساء هن أدنى منزلة من الرجال. هذه الأسطورة أعدت كي تبرر استغلال المرأة العاملة. فكثير من النسوة يقمن بنفس عمل الرجل ولكنهن لا يتلقين الأجر نفسه... رشِحن خمس نساء مرشحات في الانتخابات... دعون نريهم (أي الأحزاب الأخرى) أن نساء سنغافورة قد تعبن من التمثيل والتهريج. أناشد النساء أن يصوتن لحزبنا. إنه الحزب الوحيد الذي يتحلى بالمثالية والأمانة والقدرة على تنفيذ برنامجه الانتخابي»

كان ذلك تعليقاً خطيراً، أو لعلي ما كنت أوافق على أن تذيعه زوجتي. كنت أريد تنفيذه في وقت مبكر رغم أنه كان عملاً حثيثاً لواضعي الخطط الشرعيين في غرف المدعي العام. فقد بحثوا عن سوابق في تشريعات الدول الأخرى، واستخلصوا «ميثاق النساء» الذي حولناه إلى قانون في غضون سنة.

لقد أقر الزواج من امرأة واحدة كوضع زوجي شرعي وحيد، واعتبر الزواج من أكثر من امرأة، والذي كان آنذاك مشروعاً، جريمة ـ باستثناء المسلمين الذين كان دينهم يسمح للرجل بالزواج من أربع نسوة. كان النص مقبولاً وقد حسَّن من وضع النسوة، ولكن لم يعدل الآباء عادتهم في تفضيل الذكور على الإناث. كانت هذه حالة لم تجد حلاً بعد.

كان ثمة عدة نقاط تتضمن سلسلة من الممنوعات المفروضة من قبل بانغ بون ـ وزير الشؤون الداخلية ـ بوصفها «ضد الحضارة الصفراء». و«الحضارة الصفراء» ترجمة حرفية لعبارة في لغة الماندرين تشير لسلوك منحط ومنحرف جعل الصين تركع في القرن التاسع عشر تحت: المقامرة، وتدخين الأفيون، والإباحية الجنسية، وتعدد الزوجات، والتسرّي، وبيع الفتيات للدعارة، والفساد ومحاربة الأقارب. هذا البغض الشديد «للحضارة الصفراء» قد استورده أساتذة المدارس من الصين الذين بثوا في طلابنا وآبائهم روح الانتعاش الوطني الذي كان بادياً في كل فصل من الكتب التي أتوا بها معهم، سواء أكانت كتب أدب، أم تاريخ، أم جغرافيا. وقد تعززت بمقالات من قبل صحفيين عن الصين النظيفة والأمينة والدينامية والثورية.

تحرك بانغ بون بسرعة، محاطاً بالشيوعيين وبحماسة بيوريتانية. وقد أمر بتطهير رجال العصابات السرية الصينية وتحريم الدعارة والعروض الخلاعية، وألعاب القمار وحتى الأغاني المبتذلة. ولا بأس من زيادة البطالة قليلاً وجعل سنغافورة أقل جاذبية للسواح. ولكن البحارة الذين كانوا دوماً جزءاً من سكان سنغافورة العابرين سرعان ما وجدوا طريقهم إلى أسباب المتعة التي ما تزال

تقدم في الزوايا الخفية من الجزيرة التي كنا نتغاضى عنها. واستمر البغاء سراً، وقد تركناه جانباً لأننا لا نستطيع أن نحظره بدون اتخاذ خطوات سخيفة وإجراءات غير فعالة.

وكان أهم برنامج لدينا هو أن نوفر لكل طفل مقعد في المدرسة في غضون سنة، وهذا ما استطاع أن يحققه صهري يونغ نيوك لين، وزير التربية الآن، ففي 12 شهراً ضاعف عدد الطلاب المقبولين وذلك بجعل كل مدرسة تعمل ورديتين:صباحية ومسائية. ووضع برنامجاً لتدريب الأساتذة الذين يحتاجهم المشروع. وشجع كثيراً من الراشدين على العمل كموجهين وموجهات. كما افتتح صفوفاً لتعليم اللغة المالاوية، اللغة القومية الآن، وشن حملة تثقيف صينية، مستخدماً لغة الماندرين بوصفها لغة عامة للمجموعات الصينية كافة ذات اللهجات المختلفة. كان الناس يريدون أن يُحسّنوا أنفسهم وأوضاعهم، وقد وفرنا لهم الوسائل لذلك. فقد تبنينا الأساليب الحسنة لخصومنا الشيوعيين. ومع الحملات الشعبية، لم نرَ موجباً كي نعطي الحزب الشيوعي المالاوي MCP الفرصة لاحتكار مثل هذه الأساليب.

20. لمحات متاعب مقبلة

كنت قلقاً بسبب استلامي السلطة في سن الخامسة والثلاثين. إذ لم يكن لدي خبرة في الشؤون الإدارية ـ ولا حتى في شؤون مكتبي القانونية، التي تركت تدبيرها لتشو ودينيس. ولكن قررت أن أتكيف مع شؤون الحكومة والإشراف على الوزراء. أردت أن اطلع على مشاعر كبار الموظفين، وطبيعة عملهم ومواقفهم حتى أعرف ما ينبغي تغيره إذا كنا نريد أن نحل مشكلاتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كما أردت أن أقدر موارد كل وزارة وتوزيع هذه الموارد على الوجه الأفضل.

وقد كانت وزارة المالية أول وزارة أقوم بزيارتها، فبدون موارد مالية لا يمكن أن يتحقق أي شيء، والوزارة التالية كانت وزارة الداخلية. إذ كنا بحاجة إلى مخابرات جيدة تراقب الشيوعيين، بحيث تكون حساسة وفعالة في التعامل معهم، وتعلم مسبقاً، إذا أمكن بتحركاتهم. كنت أريد أن أعرف ما إذا كان لدينا رجال أكفاء يمكن أن يمدونا بالمعلومات والتحليل، والتفكير والتخطيط، وهي العناصر الضرورية لوضع استراجية معاكسة لإحباط مخططاتهم. وعلى مستوى الشارع كنت أريد أن تكون الشرطة منضبطة. ولكن في الوقت نفسه قوية وحازمة إذا ما أردنا إحباط مظاهرة أو أعمال شغب أولية. وكنت مصمماً على ألا تتصرف الشرطة بطريقة فجة غبية كما كان شأنها في ظل ليم يوهوك، عندما كانوا يدربون أفراد الشرطة على القيام بأفعال سيئة ويسمحون للشيوعيين أن يقتحموا جميع مواقع الناطقين بالصينية.

زرت وزارة الداخلية في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، أي بعد مدة أربع أشهر من تولي منصبي، وتحدثت أولاً إلى ضباط الشرطة لأرفع معنوياتهم. قلت لهم: إنني أتوقع إثارة اضطرابات من جانب الشيوعيين في غضون سنة، بعد أن أعادوا

ترتيب صفوفهم. وطلبت منهم أن يكونوا مستعدين لذلك. كان مفوض الشرطة، ألان بليدس، رجلاً طويلاً قليل الكلام ذا لحية قصيرة بيضاء ويضع نظارتين على عينيه. كان مديراً سابقاً لـ (الفرع الخاص)، ولم يعمل طويلاً كضابط شرطة، وكان يعي جيداً الخطر الذي يمثله الشيوعيون، ولعله ظن أنني قريب جداً منهم لمصلحتي ـ وهذه فكرة كان يشاركه فيها عدد من كبار ضباطه. لا أعرف متى أدرك حقيقة وضعي، وعرف أنني جاد كلياً عندما قلت: إن علينا أن نجابههم بدون أن نخسر الناطقين بالصينية جماهيرياً.

وانتقلت إلى مقر قيادة الشرطة في (بيرلز هيل) أي إلى (دائرة التحقيق الجنائي) ثم إلى «الفرع الخاص» لمقابلة مدير معين حديثاً هو جون لينسيل. وكان هذا الرجل قد أمضى معظم حياته المهنية كضابط شرطة نظامي فكان أكثر خبرة بأعمال الشغب من عمليات التحري وجمع المعلومات. ولم يلفت نظري بوصفه رجلاً يتمتع بذكاء حاد، وهي صفة ضرورية لفهم تكتيكات الشيوعيين واستراتيجيتهم. لذلك قررت أن أراه مع كبار موظفيه في اجتماعات أسبوعية منتظمة، بحيث اسمع مباشرة من الضباط الذين كانوا خبراء في شؤون الأمن بدون أن يلخص لينسيل الفروق المهمة، وقد كان لهذا نتائجه المفيدة. فقد أظهر ضابطان هما ريتشارد كوريدون وأحمد خان أنهما مفيدان جداً، فبدون تحليلهما الذكي والعميق للمعلومات حول الشيوعيين، ومعالجتهما التي تتميز بالخبرة العالية للأوضاع الحساسة، فإن الحكومة ستخسر الشيء الكثير وسيسوء وضعها.

كانت زيارتي للفرع الخاص مفيدة للغاية. ففي أحد أيام تشرين الأول اطلعت على ملفات ذات غطاء كتب عليه بخط عريض: (الاعتقال مخفوراً). كانت هذه الملفات تحتوي على صور لقادة بارزين في الحزب الشيوعي المالاوي (MCP) مرفقة بتقرير يفصح عن تفاصيل مهمة. وكما توقعت كانت بين هذه الصور صورة إيو تشوي يب. وكان هذا رجلاً متمرساً يجيد اللغتين الإنكليزية والصينية.

وهو من خريجي (كلية رافيلز) معاصر لهون سوي سين الذي زار سوي سين في بيتي أثناء الاحتلال الياباني. كان يسارياً متطرفاً في ذلك الحين، وكما علمت مؤخراً صار من الزعماء البارزين في «حزب بلين».

وبعد عدة صفحات خفق قلبي وكنت آمل ألا يظهر ذلك على وجهي. كنت أنظر إلى «البلين» نفسه. لم أتوقف طويلاً ولكنني توقفت بما يكفي من الوقت كي استوعب الحقائق الأساسية. كان «فانغ تشوانغ بي». قد درس في الثانوية الصينية وعمل في «نان تشيا نيوز» وهي جريدة موالية للشيوعيين سرعان ما أغلقت بعد أن بدأت حالة الطوارئ. تيقنت في الحال أن اسمه لا بد أن يكون الأخ الأكبر لفونغ ينغ تشين. فونغ (فانغ بلغة الماندارين) كانت في الخامسة والعشرين من العمر، فتاة بريئة المظهر نشيطة، في مدرسة متوسطة للبنات أنشأناها في فترة الانتخابات. أصبحت الآن عضوة ممثلة لحزبنا في الجمعية عن ستامفورد.

وفي غضون أسبوعين من استلامي السلطة، وصل يونغ بونغ هاو إلى بيتي باكراً ذات صباح دون إعلام مسبق فيما كنت استحم. ظنت الخادمة أنه طالب صيني وأخبرته أن عليه أن يذهب إلى المكتب. في تلك اللحظة رأته تشو في الشرفة ودعته إلى الانتظار في غرفة الجلوس. رفض تناول الإفطار ولكن أخذ يتحدث فيما كنت أتناول إفطاري. جاء من كوالا لامبور ليسألني ما إذا كنت سأدلي ببيان يتعاطف مع MCA حول مشكلاتهم مع «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» (UMNO)، شريكتهم المالاوية في التحالف الحاكم؟. وكان قد انتخب لتوه رئيساً للجنة الدعاية MCA في فترة توتر متصاعد داخل «الاتحاد» حول مسألة التعليم الصيني. شعر الصينيون أنهم مهددون لأن زعماء «المنظمة الوطنية» بدوا وكأنهم عزموا على أن يتسلموا ويمارسوا سلطة واسعة في البلاد، مع مشاركة اسمية من قبل الشيوعيين غير المالاويين. ولما كان يونغ يعرفني جيداً فإن زعيم

MCA اقترح عليه أن يطلب مني دَعْمَ قضيتهم. فبظنهم أنني رئيساً للوزراء في سنغافورة وزعيماً "لحزب العمل الشعبي" أملك نفوذاً في أوساط الصينيين في المالايو، حيث شعرت منظمة MCA نفسها بأنها ضعيفة بشكل محزن.

كنت منزعجاً ومضطرباً إلى حد كبير بحيث أرادني الصديق القديم أن اتخذ موقفاً عدائياً ضد «التونكو» و«المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو». وقد قلت له: إنني إذا كنت أتعاطف مع MCA فإنه لا يخطر لي أبداً أن أغضب «التونكو» «والمنظمة»، نظراً لأن هدف سنغافورة الأول كان الاندماج مع المالايو. فبعد 36 سنة تذكر يونغ الواقعة بوضوح. وقال: إنني كنت أؤكد باستمرار «علي أن أفكر في سنغافورة أولاً». لم يكن خائب الأمل كثيراً، لأنه توقع رد فعلي. كان يعرف أنني مباشر ومنفتح تجاهه. ولكن كان علي أن أصغي إليه بعناية أوفر، بدلاً من اعتبار طلبه تدخلاً غير مرغوب فيه بخططي. كان علي أن أرى أهمية مثل هذه المواقف الطائفية القوية بالنسبة إلى سنغافورة إذا كانت ستصبح جزءاً من ماليزيا. لو سئلت عن خلفية مشكلة التعليم، لكنت حذرت مبكراً من نوعية التنازلات الكبيرة التي سينبغي أن نستعد لتقديمها إذا كنا ننوي العمل مع زعماء المالايو في الاتحاد.

وفيما كان خطر تغلغل الشيوعيين في الحكومة والإدارة ماثلاً دوماً، كان اهتمامنا الرئيسي في تلك الفترة هم أولئك الذين لا يستطيعون الانضمام إليهما- المثقفون الصينيون من (جامعة نانيانغ).

طوال سنوات كانت الفكرة عن أية جامعة صينية هي أنها من منجزات جمهورية الصين الشعبية التي تفخر بلغتها وثقافتها. وكانت الطبقة المثقفة، بتشجيع من الصحافة الصينية، تتقدم بطلبات للالتحاق بجامعة تدرس بالصينية. وخلال الفترة الاستعمارية أدان الصينيون الحدود المصطنعة المفروضة من قبل الأسياد البيض في معظم جنوب شرق آسيا، وكانوا يطلقون على المنطقة

كلها اسم «نانيانغ» أو «البحار الجنوبية». ولما كان غالبيبة سكان سنغافورة من الصينيين، فقد أصبحت مركزاً للتعليم الصيني. ولكن لم يكن هناك جامعة صينية في ذلك الحين.

جعلت فورة المطاط أثناء الحرب الكورية في أوائل الخمسينيات من تجارنا أثرياء. وعندما اقترح تان لارك سي، بارون المطاط ورئيس جمعية الناطقين بالصينية في سنغافورة (هيوكين هيواي كيوان)، في ك 2 (يناير) عام 1953، إنشاء جامعة صينية كان هناك تأييد واسع وفوري. وقد خصصت الجمعية المذكورة مساحة 500 فدان من أرض فقيرة في جورونغ، وهي منطقة ريفية غرب الجريدة. وتبرع كثير من مختلف العمال الصينيين براتب يوم من أجل هذا المشروع.

وفي آذار 1956 افتتحت «جامعة نانيانغ» بعد أن انضم إليها 584 طالباً سنتسبون إلى ثلاث كليات تدرس العلوم والفنون والتجارة بالصينية. وكان هذا يعني مزيداً من المشكلات السياسية، إذ بدون الإنكليزية لم يجد المتخرجون عملاً. وكنا نعرف أيضاً أن الجامعة سوف تقع بعد بعض الوقت، بموظفيها وطلابها، تحت سيطرة الشيوعيين، كما حصل بالنسبة إلى المدارس المتوسطة.

عيّن ليم يوهوك في الأشهر الأخيرة من وجوده رئيساً للوزراء لجنة برئاسة د.س.ل. بريسكوت من «جامعة أستراليا الغربية» رئيساً للجامعة. وقد زودتنا اللجنة بتقرير يوصي بعدم اعتراف الحكومة بشهادات «جامعة نانيانغ» لأن المستويات والمعايير العلمية متدنية جداً. وسرعان ما أثار هذا التقرير غضب الجماعة الناطقة بالصينية التي اعتبر زعماؤها هذا التقرير بمثابة ازدراء بكفاءاتهم، والحق أنهم كانوا يتدخلون في عمل الأكاديميين الذي كان ينبغي أن يُترك إلى مجلس الجامعة.

كان رئيس «مجلس الجامعة» تان لارك سي، بشكل خاص شديد الغضب علينا. وإمعاناً في التحدي قام بتعيين د. نشوانغ تشولين، المدير السابق الموالي للشيوعيين، لمدرسة تشونغ تشينغ الثانوية، والذي طرد من عمله، نائباً لرئيس

الجامعة. وكان يعلم أن هذا من شأنه أن يعطي الحزب الشيوعي المالاوي MCP حرية أكبر في استخدام الجامعة كأرض خصبة له. ولكننا لم نكن آنذاك في وضع يمكننا من التدخل بدون دفع ثمن سياسي غال. وقد أرسلت مذكرة متعقلة كي أتفاهم مع تان في وقت لاحق.

كانت درسي الأول حول الفرق بين السلطة الدستورية الرسمية والقوة السياسية المطلوبة لتحقيقها. رفع نيوك لين مذكرة إلى المجلس المخصص لتجريد تان من قدرته في التدخل مع الإدارة لإعطاء الحكومة السلطة على نانتاه (اختصار صيني لعبارة جامعة نانيانغ) كما كان يفعل بالنسبة إلى جامعة المالايو في سنغافورة. انفجرنا ضاحكين بسبب بساطة هذا الحل. كان نيوك قد جاء مباشرة إلى الحكومة بعد 20 سنة من العمل في التأمين، ومع أنه أثبت جدارته بكونه وزيراً نشيطاً، لم يكن لديه فكرة عن أهمية ما يعالج.

لن أنسى أبداً يوم الأحد، 30 آذار 1958، عندما أصبح الطريق الذي يبلغ طوله 14 ميلاً من نانتاه إلى شارع بوكيت تيماه والمدينة. صفاً طويلاً من السيارات، متجهة جميعها إلى الافتتاح الاحتفالي للجامعة.

أشعر بالالتزام العاطفي الهائل لشعبنا الناطق بالصينية تجاه المشروع. وجد أن مذكرة نيوك لين من شأنها أن تسبب الشغب في المدارس الصينية المتوسطة.

وهكذا وضعنا المشكلة على الرف، وقبل نهاية الستينيات، بعد أن انفصلنا عن ماليزيا، بات لدينا من القوة ما يمكننا من فرض نظام إداري على حسابات الجامعة المالية، وتعيين الموظفين وإدارة شؤون الطلاب. ولتخفيف حدة التوتر وكسب بعض الوقت في غضون ذلك، عيّنا لجنة ثانية من الأكاديميين المحليين لمراجعة تقرير بريسكوت، ووجدنا في شباط عام 1960 أنها توصلت إلى الاستنتاجات ذاتها. ولكن لم يكن من المقبول سياسياً أن نترك الدفعة الأولى من خريجي نانتاه بدون أمل باعتراف الحكومة والتوظيف. وناقشنا هذه المسألة بعناية في مجلس الوزراء وقررنا أن نسمح لبعضهم بالعمل في الخدمة العامة، ولكن بدرجة أدنى من خريجي جامعة الملايو.

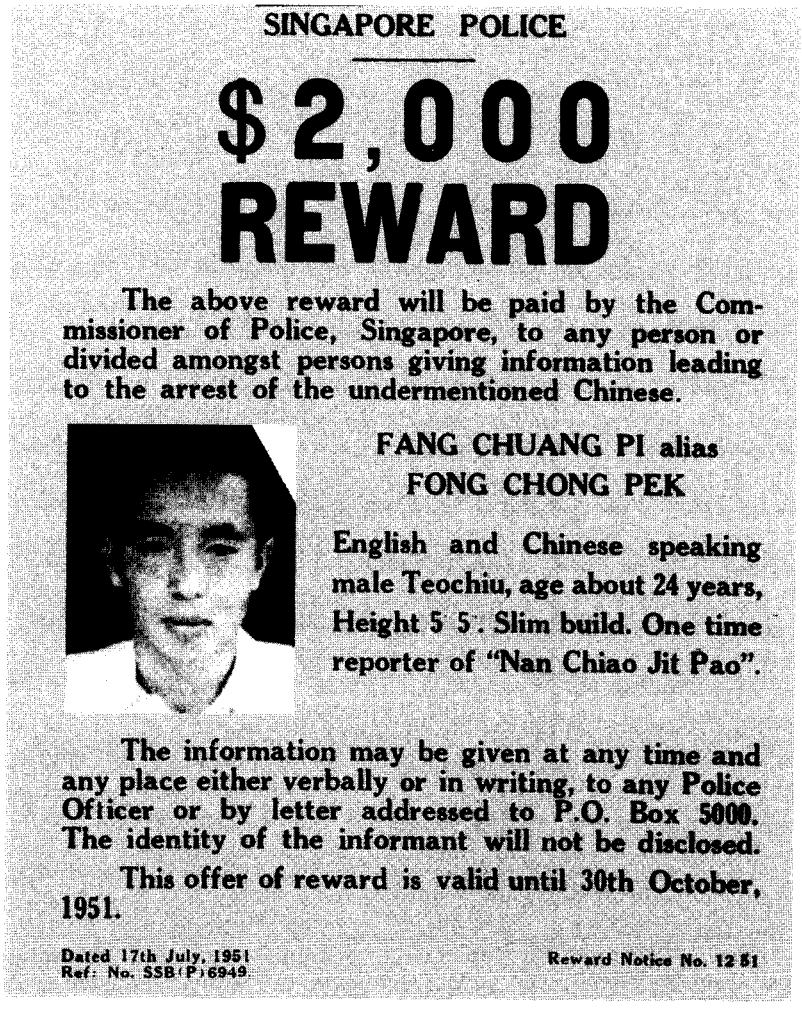
SINGAPORE POLICE

$2,000 REWARD

The above reward will be paid by the Commissioner of Police, Singapore, to any person or divided amongst persons giving information leading to the arrest of the undermentioned Chinese.

FANG CHUANG PI alias FONG CHONG PEK

English and Chinese speaking male Teochiu, age about 24 years, Height 5 5". Slim build. One time reporter of "Nan Chiao Jit Pao".

The information may be given at any time and any place either verbally or in writing, to any Police Officer or by letter addressed to P.O. Box 5000. The identity of the informant will not be disclosed.

This offer of reward is valid until 30th October, 1951.

Dated 17th July, 1951
Ref: No. SSB(P)6949

Reward Notice No. 12 51

شرطة سينغافورة

جائزة 2000 دولار

ستدفع الجائزة أعلاه من قبل مفوض الشرطة في سينغافورة لأي شخص بمفرده أو مع آخرين يعطي معلومات تقود إلى اعتقال الصيني المذكور اسمه أدناه.

فانغ شوانغ بي المعروف باسم فونغ تشونغ بيك

يمكن أن تقدم المعلومات في أي وقت أو أي مكان شفهياً أو كتابياً إلى ضابط شرطة أو برسالة إلى ص.ب 5000. لن يكشف عن هوية المخبر.

عرض هذه الجائزة سارٍ حتى 30 تشرين أول (أكتوبر)، 1951

كنت قد اتجهت إلى الجامعة في شارع جورونغ، في تشرين الأول من عام 1959 كي أتحدث إلى طلابها الألف. كانت الدفعة الأولى المؤلفة من 400 شخص تريد العمل. قلت لهم: إن الحكومة سوف تستوعب 70 خريجاً ـ خمسين منهم في التربية و20 في الدوائر الأخرى. وأداء هؤلاء السبعين سيقرر مستقبل من سيتبعهم. «إذا أثبتت الدفعة الأولى أنكم قادرون على أن تكونوا عاملين ملتزمين، مستعدين للمنافسة على قدم المساواة مع خريجي الجامعات التي تدرس بالإنكليزية، وقدمتم إسهاماً في خدمة المجتمع عندئذ ستنالون الاعتراف الذي تستحقونه». كذلك قدمنا للمرشحين المناسبين منحاً دراسية لفترة ما بعد التخرج للدراسة في جامعات خارج البلاد، ولاسيما في مجال العلوم والهندسة. وكنا نعتقد أن هذا سوف يُحفز اللامعين ويختبر قدراتهم. كنا راضين، ولكن لبعض الوقت. فقد استمر الشيوعيون في التحريض بطاقةٍ لا تعرف الكلل واستطاعوا أن يكسبوا مجندين كل يوم.

في الوقت الذي كان فيه التأييد الجماهيري لنا في أوساط الثقافة الصينية مُهدداً من قبل الشيوعيين، كان تأييد ذوي الثقافة البريطانية من الموظفين (ذوي الياقات البيضاء) فاتراً طوال الوقت. وضعت تشين تشي في إدارة معهد البوليتكنيك في سنغافورة لأنه كان مهتماً بشكل خاص بالثقافة التقنية. وقد أثبت ذلك أنه سلاح ذو حدين. في اكتشافه أن مناهجه غير ملائمة لحاجاتنا المتوقعة، كما أنهى خدمة هيئة الحكام والرئيس، وعندما أبعد الحكام من غير إبطاء استقال الرئيس. أثار هذا ذهولاً وخوفاً، لأن الطاقم لم يكن لديهم شعور بالأمن في البقاء، وشرع الأساتذة ومعظمهم من المغتربين البيض، بالبحث عن أعمال في أماكن أخرى. وكذلك فعل موظفو «صندوق سنغافورة للتحسين» والسلطة السكنية في الحكومة السابقة، حيث كان أونغ إينغ غوان يتصرف بطريقة الانفرادية. إذ كان أونغ ينتقد ويزعج الموظفين البيض. كنت أعلم كينغ سوي «كيف يتصرف» إزاء الخبراء الذين كانوا يريدون أعلى المراكز في مجلس المدينة،

والذي كان تحت سيطرته بوصفه وزيراً للتنمية الوطنية. وفي الذروة كانوا يواجهون مقاومة من موظفيه الموثوقين، أما بالنسبة للموظفين الأدنى فقد كان يزعجهم كي يجعل حياتهم صعبة. آجلاً أم عاجلاً سوف يقررون مغادرة العمل بدون تعويض.

كان لدى أونغ أمين سر يدعى فال ميدوز، موظف مقتدر وحازم له سجل عسكري متميز. وكان ميدوز أميناً لسر حامد جمعة، عندما كان وزيراً للحكم المحلي، وكان يُعد أجوبة حامد إلى أونغ عندما حدثت بينهما مشادة تفاقمت بتشكيكه بصلاحيات المحافظ. أثار أونغ حفيظة ميدوز.

يذكر ميدوز بعد 36 سنة أنه «لم يكن مستعداً تماماً لدرجة الكراهية» التي واجهها. إذ كان مبعداً إلى الجزر الجنوبية ليرى ما يمكن عمله من أجل تحسينها وتطويرها. ولما أعد خططاً من أجل عيادات وممرات ومدارس ومراكز اجتماعية وتعاونيات لصيد السمك، عندما كان مع حامد، فقد تم ذلك بسرعة ونشاط. ولكن بدل أن ينال الشكر أبعد من منصبه في الوزارة أثناء غيابه. وعندما عاد في أحد أيام السبت صباحاً كي يكتب تقاريره وجد لدهشته أنها اختفت.

فالإطارات الخشبية والأبواب والنوافذ والمكيف والمكتب وأدواته ـ جميعها اختفت بدون أثر. أعلمه أمين السر الدائم أنه تصرف بموجب أوامر وزارية. وفي صبيحة يوم الاثنين التالي قدم استقالته، وأخبره رئيس مكتب المؤسسة أن «يتريث» كإجراء وقائي. سحبت المنصب من أونغ وأبلغت فال ميدوز أن يقوم بواجباته من مكتبي.

ارتكب أونغ عدة أخطاء أخرى، وقد استنتجت الحكومة وعدد كبير من أعضاء الجمعية أنه سيكون عائقاً وليس مكسباً للحكومة. وكان كينغ سوي قد اشتكى لي كتابياً أنه كان قد طلب 415 مليون دولار للإسكان العام بدون تقديم أية خطط مفصلة أو كيف سيتم إنجازها. ولهذا أبعدته عن مجلس المدينة وجعلته يوزع أقسامه الرئيسية على وزراء الحكومة المقتدرين. ومن دواعي السخرية أن المبرر الذي قدم للجمهور هو أنه كان يحتاج إلى التركيز على الإسكان العام.

جعلت فال ميدوز أمين سري وكلفته بتقسيم مجلس المدينة، وأن يشكل هيئة للإشراف على دوائره الخاصة بالخدمات العامة، والمياه، والكهرباء، والغاز، والتفكير بما ينبغي عمله بالنسبة للدوائر الأخرى. أردت أن أُبين للموظفين عموماً أنني لم أوافق على ما حدث.

كنت عازفاً عن التصرف ضد أونغ، ولكن ليس بسبب الخوف من أن يحل محلي. لم أكن أتمنى عملي رئيساً للوزراء، فكل من سيستلم هذا المنصب سيكون هدفاً رئيساً عندما يفتح الشيوعيون النار، وأنا لم أستمتع بذلك. كنت أعرف أن أونغ ليس لديه الشجاعة لمجابهتهم. رأيته يبهت لونه عندما اتخذوه هدفاً في آب 1957 في مؤتمر الحزب وصوتوا ضده في اللجنة التنفيذية. رفض التمديد لقانون الأمن العام المحلي كما كانت تريده الحكومة، وعُهد لتشين تشي أن يبين رأينا. ومع هذا فقد ظل أفضل متحدث بلغة الهوكين لدينا. وإذا خفضنا من منزلته، فسنضعف موقفه الجماهيري ومن الصعب إيجاد بديل له.

كنا نواجه صعوبات على الصعيدين. وكان أونغ بأسلوبه المعتاد يثير الموظفين المدنيين.

كانت تصرفات أونغ، والاقتصاد، والموظفون المدنيون، والشيوعيون وصعوبات اللغة ـ كلها مشكلات راهنة وفورية لم تسمح لنا إلا بالقليل من الوقت كي نرجع إلى الوراء ونقوّم أداءنا. ولكن كان هناك شخص واحد مهتماً بعمق بمتابعة وضعنا وتقييمه في الأشهر الستة الأولى من وجودنا في السلطة، وهو بيل غود، الحاكم السابق، الذي ظل لمدة ستة أشهر الرئيس المؤقت للدولة. لقد قوّم الأيام الأولى من حكم حزبنا في ثلاث تقارير بعث بها إلى وزير خارجيته. جاء تقريره الأول في 26 حزيران. وقد بدأ الخطاب بلهجة متفائلة:

«الوزراء الجدد أذكياء. قدموا كثيراً من الأفكار في برنامجهم السياسي الذي قُدم للناخبين من خلال خطب معدة جيداً. إنهم اشتراكيون متطرفون بقناعاتهم، ولكنهم كانوا يعرفون القيود العملية المفروضة بحكم

ظروف سنغافورة الخاصة كونها مركزاً تجارياً دولياً. كما كانوا يعون خطورة المشكلة الاقتصادية المتجسمة بتزايد سكاني سريع يتوقع مستوى عالياً من المعيشة في مدينة تعتمد في دخلها على الأعمال التجارية الرابحة في مواجهة منافسة حادة. وقبل كل شيء كان يستحوذ عليهم الخوف من الشيوعية.

من أجل أن ينجحوا عليهم أن يكتسبوا تأييد طبقات الطلاب والعاملين الصينيين. وهنا يكمن ضعفهم، إذ لما كانوا مضطرين أن ينغمسوا في إيحاءات شعبية تعادي العمل الحر والطبقة التجارية التي يعتمدون عليها من أجل التقدم الاقتصادي فإن تعلقهم بالنضال السياسي والعقائدي لكسب عقول الجماهير لصالح اشتراكية ديمقراطية تفضيلاً لها على الشيوعية يمكن أن يلحق الضرر بمعالجة وافية بالغرض للمشكلات الأخرى لجعل اقتصاد سنغافورة ينجح...

ولقد قرر الوزراء أيضاً الحد من العناية بالوظائف الاجتماعية. أما الانطباع العام الذي يحاولون إبرازه هو تكريس الحكم لصالح الجماهير.

(ولهذا) فهم يدعون أنفسهم غير شيوعيين ويحرصون على أن يبيّنوا أنهم ليسوا دُمى في يد الغرب. إنهم يتحسسون حتى من المديح من جانب الغرب، لأنهم يعتقدون أنه يضر بالتأييد الشعبي للسكان الصينيين اليساريين في سنغافورة الذين يجب أن يتحفظوا بشدة تجاه القيادة البديلة للشيوعيين.

كان من غير المتوقع لفترة من الوقت أن يتحدى الحزب الشيوعي المالاوي MCP حكومة تحظى بدون شك بالدعم الحماسي من جانب السكان الناطقين بالصينية. ويقدر السيد لي كوان يو نفسه هذه الفترة من الامتياز أن تدوم مدة سنة أو أكثر».

وبعد شهرين ونصف أي في 7 أيلول، كان ما يزال متفائلاً رغم أنه سجل نقائص حكومتي:

«من الصعب أن ندرك أن حزب العمل الشعبي (PAP) قد تسلل إليه في السنوات الأربع الأخيرة الشيوعيون، ووصلوا إلى السلطة بتأييد من الجمهور اكتسبوه باستغلال مصاعب العمال والفلاحين وطلاب المدارس المتوسطة الصينيين والمثقفين الشباب. ولكن سيكون من الخطأ أن تظن أن مسؤوليات الحكومة قد غيرت هؤلاء الشباب.

«كان لدي لقاء أسبوعي مع لي كوان يوم الخميس بعد الظهر في مقر الحكومة حيث كنا نتحدث بحرية وصراحة. وجدته شديد النضج. وما يزال لديه بعض التحامل، ولكنه بصورة عامة حساس جداً وسريع وذكي دوماً. حدثته مراراً عن سلوك حكومته محذراً إياه بصراحة من العواقب التي أتنبأ بها. وكان في بعض الأحيان يصحح معلوماتي أو يطرحها بشكل آخر. وغالباً ما يكون هناك سبب معقول لما تقوم به الحكومة. وهو يوافق عموماً على انتقادي، ولا سيما ما يتعلق بمعالجة الخدمة العامة. وكان جوابه أن على الوزراء أن يتعلموا الطريقة الصعبة في رؤية نتائج أخطائهم. وأنه ينبغي ألا يعترضهم، وأن عليهم أن يتعلموا.

«وبينما نراهم في الأمور الكبيرة أقوياء ومسؤولين، نجدهم في الأمور الصغيرة عاطفيين ومملين. سنواجه صعوبات وقلاقل دائمة في التعامل معهم، أما اعتدالنا وتفهمنا سيكونان متكلفين. ولكن لديهم القدرة على تحقيق الكثير، ولا بديل لغير التعاون معهم. وأحزاب المعارضة غير موثوقة وربما محتضرة».

وفي 23 تشرين الثاني كتب تقريره الأخير.

وداع آخر حاكم بريطاني، سير وليام غود وزوجته في كانون الأول 1959.

مع الرئيس سوكارنو في قصر ميرديكا، جاكارتا، كانون الثاني، 1960.

«من غير المتوقع أن تلزم القيادة الحالية لحزب العمل الشعبي (PAP) نفسها علانية بأنها معادية للشيوعية. فموقف الحكومة تجاه الشيوعية قوي، ولهذا السبب نحن نشعر بالامتنان لها. ما زلت مقتنعاً بأن اعتبار قادة الحزب الحاليين شيوعيين مستترين هو خطأ فادح. وأن نصفهم معادون مستترون للشيوعيين هو أقرب للحقيقة.

«على الرغم من كل جهود وزراء سنغافورة لكسب رضى وزراء الاتحاد فإن موقف الاتحاد يظل غير موثوق. فرئيس الوزراء متأكد الآن أن ليس هناك أمل في الاندماج أثناء فترة الحكومة الحالية وهو يرى أيضاً أن التأكيد العلني على الاندماج في سنغافورة يسبب حرجاً سياسياً وعدم ثقة الجمهور بالاتحاد. ولكنه مهتم بإبقاء سنغافورة في وضعها الدستوري المؤقت الحالي والاحتفاظ بهدف الاندماج كونه نفوذاً حاسماً لسياسة سنغافورة. إنه يعتقد بصدق أنه سيكون مدمراً لكل من سنغافورة والاتحاد إذا أصبح الاتحاد غير قابل للتحقيق وإذا استدارت سنغافورة إلى اتجاه آخر في مستقبلها. فمن الأهمية بمكان لنا جميعاً ألا يحدث ذلك.

«وهكذا فإن الموقف اليوم أن السيد «لي كوان يو» ما يزال ماسكاً زمام الأمور في الحكومة، والحكومة متحدة بشكل جيد. لقد ارتكبوا أخطاء وهذا أمر كان متوقعاً، وباستثناء رئيس الوزراء فإن الوزراء لم يكونوا بالمستوى ذاته الذي بدأوا به. إنهم يجدون صعوبة في إدارة الحكومة بالمقارنة مع إدارة حزب سياسي ناجح. ولكن بصورة عامة قاموا ببداية طيبة من حيث الاستمرار في سياستهم المعلنة. يقول لي رئيس الوزراء أن أؤجل الحكم على أدائهم حتى يكملوا سنة في الحكم. وقد ثبت أن كل ما كان يقوله صحيح.

«ينبغي أن تستمر سياستنا في تأييد حكومة «حزب العمل الشعبي» وأن نفعل كل ما في وسعنا لنضمن سلامتها وثقتها. وبذا سنكون قادرين على المساعدة في منح سنغافورة حكومة موثوقة مستقرة. وبهذه الطريقة فحسب نستطيع أن نتجاوز الصعوبات الصغيرة الدائمة والاستفزازات التي تواجهها».

ومثل أستاذي في «معهد رافيلز» وصفني غود بتقرير جيد. يبدو أنه لم يكن يدري المتاعب التي كانت تنتظرني أنا ورفاقي، وكم ستتغير الأمور فيما بعد. كان لتقرير غود تأثير قوي على المفوض البريطاني الوافد حديثاً لورد سيلكيرك، أو بصورة أدق على نائبه فيليب مور، وهو موظف في الإدارة المدنية البريطانية، الذي كان أمين السر الخاص له عندما كان اللورد الأول في الأدميرالية.

قبل أن يغادر غود في الثاني من شهر كانون الأول (ديسمبر) قلت: إنه فعل كل ما في وسعه لخدمة الملكة وبلاده، كما أنه خدم شعب سنغافورة. قال لي مرة أثناء تناول الشاي في جلسة ما «نحن هنا لتحقيق بعض الكسب. ولو لم يكن ثمة ما نكسبه لغادرنا البلاد». لم يكن يتبجح أو يدعي، وقد ازداد احترامي له من أجل ذلك. وعندما قرر أن يغادر بحراً، لا جواً، كانت الحكومة في وداعه.

مع مغادرة آخر حاكم بريطاني كان علينا أن نعين رئيسنا الخاص بنا. وقد اخترنا يوسف بن اسحاق المدير الإداري لـ «أوتوسان ميلايو» ليكون خليفته. كنا نريد مالاوياً متميزاً لنظهر للاتحاد أن السنغافوريين يقبلون بأن يكون مالاوي زعيماً لهم. وكنت أعرف أنه رجل طيب يتميز بالتواضع والكرامة. وكانت زوجته شخصية اجتماعية حيوية ومحببة. وأدى اليمين في 3 ك 1 (ديسمبر) في «سيتي هول» وجرى احتفال رسمي في هذه المناسبة حضره عدد كبير من المسؤولين والجمهور.

جرى خلاف حول العلم الرسمي للبلاد بين الجماعات المختلفة، وأخيراً تم الاتفاق على علم يتضمن رسم الهلال وخمس نجوم بيضاء. تمثل المُثل الخمس للبلاد: الديمقراطية، والسلام، والتقدم، والعدالة، والمساواة. وبهذا وفقنا ما بين الرمز والمثل العريقة المختلفة.

كما اتفقنا أخيراً على رمز سلاح الدولة الذي يحمل صورة الأسد والنمر على وجهي الدرع الذي يحتوي على هلال مع خمس نجوم، وتحته عبارة «ماجولاه سينغابورا» التي تعني «لتزدهر سنغافورة». كما تم اختيار النشيد الوطني إذ كان

ذلك أسهل الأمور فالموسيقار المالاوي الحاج زبير وضع لحناً مناسباً. لم يكن لحناً عسكرياً كالمارسيليه الفرنسي أو النشيد الوطني الصيني. كان النشيد يتناسب مع منطقتنا وشعارنا «ماجولاه سينغابورا».

وعلى الرغم من العثرات في الشهور الستة الأولى في الحكم استطعنا وضع أسس عدة سياسات حكومية مهمة، بما في ذلك مشروع بناء لتطوير سنغافورة وإعمارها.

وفي شباط 1960 حلّينا «اتحاد تحسين سنغافورة» ووزعنا مهماته بين «هيئة الإسكان والتطوير»، التي كانت تحت إشراف وزير التنمية الوطنية، و«سلطة التخطيط» التي كانت تحت إشراف رئيس الوزراء. وعيّنا ليم كين سان رئيساً لهيئة الإسكان وكان ذلك عملاً حاسماً. فقد كان ليم رجل أعمال، وشخصاً عملياً ومبتكراً. كان يدير أعمال والده التجارية بالإضافة إلى عمله مديراً لأحد أكبر المصارف المحلية. كان رجلاً متعدد المواهب. وكان كينغ سوي حريصاً على أن تنفق أية اعتمادات على الإسكان الشعبي بصورة سليمة أما أونغ إينغ غوان فلم يكن يسمح بهدر الأموال العامة.

بعد فترة قصيرة من تعيين كيم سان جاء ليراني. كان أونغ قد أمره أن يستأجر عمال بناء مباشرة وبهذا يُبعد متعهدي البناء الوسطاء الذين «يستغلون العمال». أراد أن تكون «هيئة الإسكان والتنمية» (HDB) نموذجاً للتنفيذ. كان كيم سان مرتبكاً. سألني: «هل تريدني أن أبني بيوتاً أم تريدني أن أكون متعهد عمال بناء؟». إذا كنت تريد شققاً فأنا أعرف كيف تبنى الشقق، ودع ذلك لي، سأبني لك هذه الشقق. أما إذا كنت تريدني أن أستأجر العمال مباشرة، فمن الأفضل أن تجد مسؤولاً آخر. فكل متعهد لديه مشرفوه وأقرباؤه ومن يثق بهم من المشرفين على العمل. وبالمقابل فإن لديهم جماعاتهم من العمال وهم يعرفون كل شخص في مجموعاتهم ويدفعون لهم بقدر ما يقدمون».

كانت هذه إحدى حيل أونغ السياسية كي يجعل نفسه تحت الأضواء. فمنعته من ذلك وطلبت من كيم سان أن يتبع الأسلوب الذي يراه مناسباً. فبنى الشقق فعلاً. وقد حدثت حريق كبير جرى في حزيران 1960 فأصبح ما يقا رب من 30 ألف شخص في منطقة تعرف باسم «بوكيت هو سوي» بدون مأوى. وفي غضون 18 شهراً وفر لهم كيم سان شققاً. كما وضع سداً في مقر إقامتي على طول شارع كانتونمنت، في موقع ظاهر. ولو أنه لم يكن على وشك الإنجاز في وقت الانتخابات القادمة لما انتخبت من جديد.

جميع الحكومات الجديدة تريد أن تبرهن على قدرتها من خلال إصدار قوانين جديدة والشروع بكثير من المشروعات الجديدة. كنا في عجلة من أمرنا. ففي شباط 1960 أعلنت عن خطط لإعادة تنظيم «هيئة ميناء سنغافورة» وأوكلت ذلك إلى «سلطة ميناء سنغافورة». وبعد ذلك قمنا بالقراءة الأولى لـ «قانون المرأة» لجعل سنغافورة من الدول التي تتمتع النساء فيها بحقوق المساواة ومنع تعدد الزوجات. وأوجدنا «محكمة للعلاقات الصناعية» وفقاً للنموذج الأوسترالي، وعيّنا رئيساً لها تشارلز غامبا، أستاذ الاقتصاد في جامعة ملايا. كان معروفاً بوصفه محكماً في إضراب هوك لي للباصات، بالتعاطف مع العمال، ولكنه لم يكن متحاملاً على أصحاب العمل. كما أطلقنا برنامجاً لتخطيط الأسرة بوجود ألف متطوع كانوا متدربين على ترويجه في أوساط الجمهور، وحريصين على تخفيض نسبة الزيادة السنوية في تعداد السكان والبالغة 4%. والأهم من ذلك وضع مشروع قانون يمنحنا صلاحيات أوسع لمحاربة الفساد. إذ كان من الأولويات أن نعزز القانون بحيث يمكن اتهام الفاسدين ومحاكمتهم أمام القضاء. وهذا ما أدى إلى تشكيل وكالة جديدة وهي «مكتب التحقيق في ممارسات الفساد» الذي ساعد على جعل سنغافورة نظيفة.

أعلنا أننا سنقدم مساعدة مادية متكافئة لكل من «جامعة مالايا» (في سنغافورة) وجامعة نانيانغ بمعايير متساوية. وقد طالب «اتحاد طلاب جامعة نانيانغ» في صحيفتهم (يونيفيرستي تريبيون) بعد أن عبروا عن سعادتهم

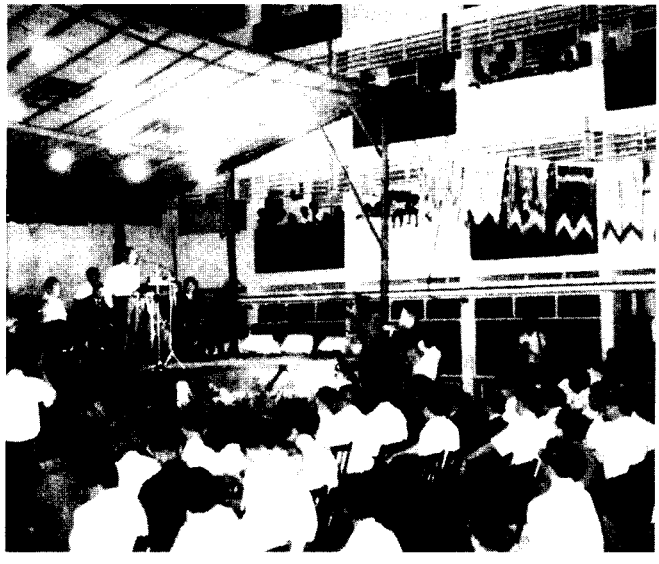

رئيس هيئة الإسكان والتنمية (HDB) ليم كيم سان يتحدث في حفل إنجاز الشقق التي بنتها «الهيئة» في شارع كانتومين في العاشر من نيسان 1964. كنت أجلس خلفه

أنا وكيم سان داخل شقة سكنية جديدة مكونة من ثلاث غرف مساء العاشر من إبريل، حيث كانت سنغافورة أفقر حالاً حينئذٍ

بالمعاملة المتساوية، بأن تكون المساعدة غير مشروطة. وكنا قد طورنا آفاق الطلاب الناطقين بالصينية بالسماح لهم بالالتحاق «بجامعة مالايا». وقد بدأنا بدورات ما قبل جامعية في ثلاث كليات هي الفنون، والحقوق، والعلوم بالنسبة للطلاب غير المؤهلين باللغة الإنكليزية كي نعدّهم «لجامعة الملايا».

بيد أن خططنا الاقتصادية لم تحقق إلا تقدماً يسيراً. وكنا تحدثنا في شهر أيلول مع المالاويين حول تشكيل سوق مشتركة محدودة، ولكننا وجدناهم أقل استعداداً من ذي قبل. كانت الأمور في غاية السوء بحيث أن أحد الصناعيين عندما خطط لتوسيع مصنعه لغزل القطن اعتبر هذا حدثاً مهماً لأن من شأنه أن يستوعب 300 عامل. كانوا في حالة يأس بسبب فرص العمل.

كانت السياحة في ذلك الحين صناعة ناشئة في آسيا لأن معظم السواح كانوا يزورون الدول المتقدمة. فجعلنا من عام 1961 عام «زيارة الشرق» مع عرض جوي، ومعرض للتلفزة والراديو، ومعرض سيارات، ومعرض صور واحتفالات يوم الاستقلال في 3 حزيران، تلاها احتفال ثقافي لمدة أسبوعين. ولكن البرنامج لم يلق إقبالاً واسعاً.

علقنا آمالنا على وفد «هيئة المساعدة التقنية» التابع للأمم المتحدة، الذي جاء إلى البلاد لمسح الموقع السياحي المقترح «لجوردنغ»، وتقديم المشورة لأنماط الصناعة المناسبة له. وكنا موفقين في اختيار رئيس الفريق د. ألبرت دينسميوس، وهو خبير صناعي هولاندي أمضى 3 أشهر في سنغافورة، وقدم عدة إسهامات من أجل تطويرها. كان رجل أعمال عملياً قوي الإرادة وعلى اطلاع واسع على اقتصاديات ما بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا وأمريكا. واستطاع أن يضطلع بدور مهم في تخطيطنا الاقتصادي فيما بعد.

كنا نعتمد أشد الاعتماد على التجارة، ولا سيما مراكز توزيع السلع. وفي الشهر الماضي صل وفد إندونيسي لمناقشة كيفية التخلص من «التجارة غير النظامية"، وتحسن عائدات التبادل. كانوا يريدون منا أن نقرض الهند الصينية

بالعملة الصعبة بنسبة مئوية مرتفعة من قيمة صادراتهم إلى سنغافورة، وفي مقابل ذلك سيشترون كمية من البضائع يتفق عليها من خلالنا. ولكن سيكون من الصعوبة بمكان أن نحصل على موافقة القطاع الخاص، إذ لا أحد يصرح بقيمة مستورداته من إندونيسية أو صادراته إليها، وبكم اشتراها أو باعها فعلاً، فالشاحنون الأندونيسيون سوف يقللون من قيمة بضائعهم، وسيستخدمون غالباً إجازة التصدير نفسها لإرسال وجبة أخرى من البضائع، وهكذا.

كان تهديد الشيوعيين، بتأثير وضع البطالة، أكبر من أي وقت مضى. وكان «مجلس الأمن الداخلي» منزعجاً بشكل زائد من نمو قوتهم في النقابات، ويطالب حكومة سنغافورة بالتحرك ضدهم. فرفضت ذلك. إذ لو فعلنا هذا فستنتهي بنا الأمور كما انتهت بليم يوهوك، أي باعتقال النشطاء مما سيزيد الأمر سوءاً بدلاً من إصلاحه. كان غود قد سمح بذلك قبل أن يستلم السلطة، ولكنني كنت تحت ضغط دائم من جانب المالاويين كي أفعل شيئاً.

عقد غود، مرتدياً قبعته الأخرى بوصفه قوميسياراً بريطانياً ورئيساً «لمجلس الأمن الداخلي»، اجتماعه الأول في شهر آب. وقد مثلتُ أنا وأونغ إينغ غوان، وبانغ بون سنغافورة، ومثل حكومة المالايو د. إسماعيل بن داتو عبد الرحمن، وزير الشؤون الخارجية. كان إسماعيل، الطبيب، قصيراً وبديناً بعض الشيء وشديد السمرة، وذا شعر أشعث وشائب، ويلبس نظارات، والغليون في فمه طوال الوقت. كان هادئاً ومتحفظاً ولاعب غولف ماهر. ومن أجل أن أجاريه عدت إلى لعب الغولف بعد أن أهملته. شعرت نحوه بالود والاحترام بسبب سلوكه المباشر والمستقيم، كان يعرف ماهية عمله ـ أي أمن مالايو. كان يصغي إلى نصائح ضباطه الخبيرين بالشيوعية والتخريب، وكان مصمماً على ألا يكسب الشيوعيون الصينيون المالاويون. كان ملتزماً بسياسة «حزب العمل الشعبي» وأساليبه ضد الشيوعيين، وقد احتجت إلى بعض الوقت لإقناعه أننا تبنينا أسلوباً آخر، لأن قاعدتنا الشعبية كانت من الغالبية الناطقة بالصينية التي كانت عرضة للضغط الشيوعي.

ومع تعرفي على الوزراء المالاويين على نحو أفضل، أضحى الرجل الذي أثق به ثقة مطلقة. كان أميناً ومخلصاً في تعامله معي، وأعتقد أنه كان يقدر صداقتي واحترامي له. كان الرجل الثالث في قيادة «منظمة مالايو الوطنية المتحدة» ـ UMNO بعد «التونكو» ونائب رئيس الوزراء عبد الرزاق الحاد، ولكن اسماعيل كان الزعيم الأبرز والأكثر حزماً. وعندما استقال تونكو، عين رزاق، بوصفه رئيساً للوزراء، نائباً للرئيس. كان بوسعه أن يكون رئيس وزراء جيدا للغاية لو لم يعاجله الموت وهو صغير السن نتيجة أزمة قلبية.

في اللقاء الأول قدمت سنغافورة ورقتي عمل: واحدة من قبل المختصين في الفرع الخاص، والأخرى من الوزراء الذين يسعون لتحرير أولئك المعتقلين من حزبنا والذين تربطهم به صلة وثيقة. أشار غود إلى أن خبراء «الفرع الخاص» قد أفادوا بأن الأحداث السابقة تكرر نفسها ـ فقوة الشيوعيين في تحدي الحكومة تتزايد ـ وتساءل ما إذا كان من الحكمة الآن التدخل لسحق الوحش قبل أن يكبر ويصبح أكثر خطراً. اعترضت على ذلك. فألح غود عليّ لشرح سياستنا. قلت: إن سياستنا بالمعنى الواسع ألا ننخدع بمناورات الشيوعيين. إذا لم نهيء الأرضية بحيث يفهم العمال الناطقون بالصينية أن زعماءهم اعتقلوا لأنهم ألحقوا ضرراً بالاقتصاد، وبالتالي عرضوا أعمالهم للخطر، فلسوف نخسرهم. يجب ألا نجعلهم يعتقدون أن قادتهم اعتقلوا لأنهم كانوا نقابيين جيدين وموالين للشيوعيين.

لم يفهم إسماعيل هذه المقاربة. وشرح كيف أن سياسة التشدد في «الاتحاد» قد أحبطت التخريب الشيوعي. قلت له: إن المالايو تختلف عن سنغافورة. إذ تستطيع حكومة المالايو أن تستخدم الشدة ضد الشيوعيين دون أن تخسر تأييد الجماهير ذلك أن الغالبية من المالاويين. بيد أن حكومة سنغافورة لا بد أن تحاول كسب قاعدتها الجماهيرية ـ الصينيين غير الحزبيين. ولاسيما المثقفون منهم الذين يستطيعون التأثير على الآخرين. كان غود يتفهم موقفنا، ولكنه مال إلى رأي إسماعيل.

كنا بحاجة إلى أعصاب هادئة كي نتشبث بموقفنا. ففي نهاية الشهور الستة الأولى كان بناء الجبهة الشيوعية المتحدة ما يزال مستمراً. وكان ليم تشين سيونغ ورفاقه يجذبون مزيداً من النقابات إلى صفوفهم، وما إن أصبحوا الأكثرية، فإن «المؤتمر النقابي» (TUC) الذي تنتمي إليه النقابات الشيوعية وغير الشيوعية، سوف يتخلص من وصاية «الاتحاد الدولي للنقابات الحرة» (ICFTU) الذي يرعاه الغرب. وكان هذا «الاتحاد» قد أسس لمواجهة «الاتحاد العالمي للنقابات» الذي ترعاه موسكو. وكان الموالون للشيوعيين يتذرعون بأن «الاتحاد» المذكور يرتبط بسياسة القوة.

في غضون ذلك كانوا يعملون بدأب من أجل فونغ سوي سوان وإعادته إلى الطوق. كان فونغ من الناطقين بالصينية، خلافاً لنير، وأسيراً لأساطير الحركة الثورية في الصين، ولا يتحلى بالفضائل التي تجعله يتقبل مفهوم التغيير الاقتصادي والاجتماعي الثوري بالوسائل السلمية. كانت الثورة بالنسبة لذوي الثقافة الصينية من أمثال فونغ، تتطلب العنف. لأنها بدون عنف ستكون، بحسب الديالكتيك الماركسي «مجرد إصلاح» وعلى أية حال ما كان يستطيع أن يقاوم الانجذاب العاطفي للصداقات القديمة والولاءات التقليدية. سرعان ما مال وودهولُ وبوثو تشيري نحو الجانب الأقوى الذي لا يهزم كما يبدو. فعزلوا نير الذي استقال، بموافقتي، من منصبه «أمين سر سياسي» في شباط كي ينشغل بدراسة جدية وكتابات مخصصة «للإسهام في دعم الأسس الإيديولوجية والنظرية لحزبنا (PAP)».

تنقل ليم تشين سيونغ وفونغ من قوة إلى أخرى، منتصرين لصالح المعسكر الموالي للشيوعية (TUS) ليس فقط على الزعماء النقابيين الناطقين بالإنكليزية بل وقليل من الناطقين بالملاوية. وقاما، مُعززين بالنجاح، بنشر عدة بيانات تنتقد موقف الحكومة تجاه المحتجزين والنقابات، بحيث كان عليّ في الأول من آب أن

أحذر في «الجمعية» أنهم إذا تحدوا السلطة فسوف يُواجهون برد خطير. بعد ذلك صرح رسمياً ثلاثة من الأمناء العامين السياسيين ـ ليم تشين سيونغ، وفونغ، وودهول ـ أن موقفهم ما زال على حاله كما كان عندما تحرروا من الاعتقال في حزيران 1959: لكي يؤيدوا حزبنا وسياسته القائلة بأن الاستقلال ينبغي أن يتحقق من خلال الاندماج بالاتحاد.

في ذلك الوقت كانوا يظنون أن الاندماج كان في مستقبل غير محدد ـ وكذلك أنا ـ ولكنهم مع هذا كانوا يشجعون مطالب باستقلال سنغافورة بدون اندماج.

21. مهزوم في هونغ ليم

كنت أعرف أن أونغ إنغ كان يتآمر مع بعض أعضاء الجمعية ولكنه لم يقلقني كثيراً، لأنني كنت واثقاً أنه لا يستطيع مطلقاً أن يحصل على أغلبية تؤيده. ولكنه أصبح متهوراً. فهو إذ فقد السلطة بات مستعداً للإضرار بنا حتى لصالح الحزب الشيوعي. وفي مؤتمر الحزب في حزيران 1960 طرح فرع هونغ ليم 16قراراً، أربعة منها طرحت من أجل منحه تأييد الشيوعيين.

ومن أجل تبديد شكوكي، كان ليم تشين سيونغ ورفاقه قد احتجوا قبل ذلك بأنهم لن يكونوا على صلة مع أونغ. وأصدر (المجلس النقابي) بياناً جاء فيه على الرغم من أن الحزب (حزبنا) قد ارتكب أخطاء فإنهم لن يؤيدوه. ولكنني كنت أعتقد أنه بوسع المجلس الضغط على أصدقائه لمنعه من ذلك. دعت القرارات إلى سياسة أشد معاداة للكولونيالية، والإفراج الفوري عن جميع المعتقلين، والمراجعة الفورية للدستور. بمعنى آخر ظهر أن الحكم الذاتي الداخلي لم يكن جيداً بما فيه الكفاية.وهكذا أراد أونغ أيضاً الاستقلال. كنا نريد حسم النزاع. كان معزولا في الحزب، وبعد يومين من المداولات، فصله المؤتمر مع اثنين من الجمعية سانداه ـ هما س. ف لينغمان ونغ تينغ كيان، وكلاهما من الهوكين الذين يتحدثون الصينية مثل أونغ. وقد غادر ثلاثتهم المنصة ليجلسوا في صفوف المعارضة.

أصيب أونغ بالإحباط. فقد أفل نجمه، ولم يعد موضع اهتمام في الصحافة لذا لجأ إلى لفت الانتباه باللجوء إلى أمور غير متوقعة. ففي شهر أيلول دعا رئيس الوزراء إلى منازلة في (مجلس الأمن الداخلي) من أجل إفراج غير مشروط عن جميع المعتقلين السياسيين. ولم يكن هذا ليفيده. مرة أخرى إنه سيفيد الشيوعيين فقط على الرغم من أنهم لا يثقون به ولا يحترمونه. ولكن تصرفه من شأنه إرباك الحكومة. إذ من غير المتوقع أن تقوم حكومة الاتحاد،

ذات الأغلبية في (مجلس الأمن الداخلي) على إطلاق سراح أشخاص مقتنعة بأنهم كانوا يشجعون الحزب الشيوعي المالاوي mcp. ولما كانت الحكومة تعمل لصالح شعب سنغافورة من خلال الاندماج في الاتحاد، فليس لديها نية لاتخاذ إجراء في غير صالحه .

كانت استراتيجية يونغ أن يظهرنا كتابعين للإمبرياليين، وهو قد اتخذ الآن خطوة أبعد. في تشرين الأول قال: ادعى أنني قد أصبحت دمية يحركها جورج تومبسون «مدير دوائر الاستعلامات»، والذي أصبح الآن مرشدي وفيلسوفي. أراد أن يضعف موقفي أمام الناطقين بالصينية بتصويري على أني الناطق باسم كاتب الخطب والناصح الاستعماري. وزعم أن فال ميدوز وآلان بليدز قومسيار الشرطة، كانا يتلاعبان بي. وعندما تحديته أن يكرر هذه الأقوال خارج «الجمعية» ظل صامتاً.

وفي اجتماع الجمعية التالي في شهر كانون الأول (ديسمبر) اتهمني أونغ بمحاباة الأقارب، زاعماً أنني عينت كوا سون تشوان نائباً للمسؤول (عن دائرة العائدات الداخلية) لأنه كان صهري. ومرة أخرى طلبت منه أن يقول ذلك خارج البرلمان. وعندما لم يفعل، قدم تشين شي، بوصفه رئيساً للمجلس، اقتراحاً بتوجيه اللوم إليه بسبب تصرفه غير المشرف، وتعليق عضويته حتى يقدم الاعتذار للمجلس.

كان جديراً بأونغ أن يصمت ولكنه ادعى أن «الجمعية» ليس لها صلاحية إدانة عضو. وتحداني أن أستقيل وأن أنازله في انتخابات فرعية تجري في دائرتينا الانتخابيتين، وجدد اتهاماته ضد حزبنا وقال: إنه يساند (لجنة الخدمة العامة). وقَبِل بالتحقيق في الاتهامات من قبل لجنة يشكلها «المجلس»، ولكن قبل أن تعقد الجمعية اجتماعها في اليوم المحدد قدم استقالته. وأعلنا أن لجنة للتحقيق سوف تشكل برئاسة قاض من المحكمة العليا للتحقيق في المزاعم. وأنه بعد تقديم التقرير إلى المجلس ومناقشته ستجري انتخابات فرعية في هونغ ليم.

في 3 كانون الثاني (يناير) عام 1961 عيّن وزير العدل ف.أ. تشوا رئيساً للجنة التي عقدت مابين 17 كانون الثاني والأول من شهر شباط. كان هدفي الرئيسي من التحقيق أن أضغط عليه كي يثبت جميع التهم التي وجهها إلي. وجاء في تقرير تشوا، الذي صدر في شباط، أن لا صحة لأي من المزاعم التي ذكرها وأن أونغ رجل غير صادق (ولا يوثق بكلامه) وناقشنا المسألة في «الجمعية» وأدنّا تصرف أونغ غير الشريف. فقد استطعت أن أكشفه كرجل كذاب وشرير. وتأملت أن تهتز مكانته لدى الناطقين بالصينية في هونغ ليم. ولكنني كنت مخطئاً في ظني.

كانت حملتنا الانتخابية طويلة فقد امتدت 9 أسابيع من 11 آذار إلى 29 نيسان. رشحنا جيك يون ثونغ الصحفي الذي كتب خطبتي الأولى بلغة الماندرين.

وبعد اللقاءين الأولين للشارع الأولين في هونغ ليم عرفنا أن الجو فاتر. ولم تكن شعبية أونغ الشخصية قد تأثرت. كان قد قدم للناس الكثير جداً من الأفعال الطيبة. فقد نصب الأعمدة ومصابيح إضاءة الشوارع وتحدث عن توزيع إجازات سيارات الأجرة مجاناً. كان الجمهور راغباً في تجاوز أكاذيبه وكثير من إخفاقاته. كانوا مستائين لأننا لم نعط إجازات هجرة إلى أقاربهم في الصين. والتي أثارها الآن بوصفها قضية مهمة، على الرغم من أنه لم يفعل ذلك من قبل أبداً عندما كان وزيراً. كان يعرف أننا إذا وافقنا على ذلك فلسوف يسبب ذلك اضطراباً كبيراً مع الأعراق الأخرى، بما في ذلك الصينيون الناطقون باللغة الإنكليزية، كما سيثير بالتأكيد عداوة المالايو. لم يكن الناخبون مهتمين بحلوله الأربعة المناسبة للشيوعيين. فقد اكتشفنا ذلك ونحن نشق طريقنا بصعوبة. ثم قمت بجولة حول هونغ ليم وهي منطقة مزدحمة في وسط «تشاينا تاون» صعوداً وهبوطاً عبر الأدراج الخشبية المتداعية للمخازن الخربة لأطوف فيها جميعاً، وأزور أحياناً الأماكن ذاتها مرتين أو حتى ثلاث مرات.

الناس كانوا مهذبين ولكنهم غير مستجيبين. حاولنا جهدنا، ولكننا عرفنا أنهم كانوا شديدي الولاء لأونغ، وكان علينا أن نلجأ إلى ليم تشين سيونغ، الذي لم يكن راضياً لأننا غيرنا القانون من أجل إعطاء سيطرة أفضل على النقابات الموالية للشيوعيين والجمعيات الثقافية.

كان ليم تشين سيونغ يريد الإطاحة (بمجلس الأمن الداخلي) لأنه كان يعرف أنه إذا تخطى بعض الحدود فإن المجلس سيتصرف، وإذا أمر باعتقال وإدانة الزعماء الشيوعيين، فإن حكومة سنغافورة لن تعتبر مسؤولة وستوسم بأنها أداة للاستعمار. إذا أن ممثل الحكومة المالاوية، وليس الحاكم البريطاني، هو الذي سيشد الزناد. عندما رفضنا أن نتزحزح، خطبَ ليم في اجتماع ضم الآف النقابيين في قاعة فكتوريا التذكارية أثناء الحملة حول هذه الأمور وأوعز إلى هونغ ليم ألا يساعد حزبنا. وعندما تم إحصاء الأصوات هزم أونغ مرشحنا بـ 7747 صوتاً مقابل 2820 صوتاً.

كانت هذه هزيمة نكراء ولكنني صممت على متابعة الصراع. قلت: «النتائج تجعل من المحتم علينا أن نبني موقف الثقة بأنفسنا».

أحد عوامل العزاء في هذه التجربة المريرة أنني اكتسبت ثقة كمتحدث بلغة الهوكين. فبخسارة أونغ في حزيران عام 1960، كنا قد خسرنا متحدثاً فعالاً بلغة الهوكين ينافس ليم تشين سيونغ. وكان كينغ سوي قد اقترح أن أقوم أنا بجهد كي أحلّ محله بدلاً من أن نختار شخصاً آخر يمكن أن يسبب لنا المتاعب ثانية. وهكذا بدأت أتعلم العامية مقتنصاً ساعة من الوقت عند الغداء أو في المساء لثلاث مرات وأحياناً لخمس مرات في الأسبوع. كان لدي معلمان جيدان كلاهما من إذاعتنا، كان عليهما أن يعلماني نصاً جديداً روماني الطابع كي التقط اللفظ بالهوكين ذات الخصائص الصينية. إذ لا تشبه لغة الهوكين لغة الماندرين مطلقاً، فلا نجد فيها سبع نبرات بدلاً من أربع كما أنها تستخدم مزيجاً مختلفاً من الأفعال والأسماء والصفات. ولكن كلتاهما تنبثقان من الصينية، ومن حسن الحظ

أن لغة الماندرين قد وصلت إلى مستوى متقدم بشكل كاف بالنسبة لي كي أتحدث بها، أي ليس عن قرب فقط بل من المستوى الثاني أو الثالث من بناء ذي 25 طابقاً. ومع هذا فإنني عندما ألقيت أول خطبة لي بلغة الهوكين في هونغ ليم. ضحك الأولاد المتجمهرون وسط الجماهير على أخطائي، والتي شملت ألفاظاً ونبرات خاطئة، وأخطاء في تركيب الجملة، بل أخطاء في كل شيء تقريباً. ولكنني لم أخجل أو أشعر بالحرج. كانت مسألة حياة أو موت. لم تكن مجرد مسألة صراع مع أونغ. فقد كنت أستعد للمنازلة الحتمية مع ليم تشين سيونغ والشيوعيين. وسوف أخسر بالتخلف إذا لم أستطع التحدث بالعامية جيداً بحيث أوصل أفكاري إلى الصينيين الأميين أو محدودي التعليم الذين كانوا آنذاك يشكلون الأكثرية والذي ما كان بوسعي أن أتواصل معهم عن طريق لغة الماندرين. في نهاية الحملة وبعد خطب لا حصر لها كنت أتحدث الهوكين بصورة مفهومة.

فيتعلم المرء لغة جديدة في أواخر الثلاثينيات من العمر، وهو يقع تحت ركام من الأوراق التي كتبت علها عبارة فوري، أو ملح أو سري جداً، وأضابير ضخمة، كان يتطلب تركيزاً وجهداً فوق قدرة الإنسان. وما كان بوسعي أن أفعل ذلك بدون دافع قوي للدراسة.فعندما بدأت كان الأمر في منتهى الصعوبة، أشبه بحمل مرجل من النحاس أمام المعبد كما يقول المثل الصيني. حتى عندما كنت أتجه بالسيارة إلى اجتماعات، كنت أتمتم ببعض الكلمات في السيارة، وأكرر تعبيرات جديدة. وفي بعض الأحيان يكون أستاذي إلى جانبي لتصحيح أخطائي على الفور بعد خطبتي الأولى وقبل أن أشرع بالثانية. كنت أمضي كل دقيقة ضائعة في المراجعة كي يكون لفظي سليماً، وأتذكر كلمات جديدة كي ترسخ في ذهني بحيث أستطيع أن ألفظها بدون العودة إلى النص. كان علي أن أتعلم بسرعة.

ومن خلال التمرين والإعادة على مدى الأشهر القليلة التالية، كنت أتكلم بدون العودة إلى النص، وأرتكب الأخطاء وأصححها مرة بعد أخرى. وفي النهاية تمكنت من اللهجة المحلية وبات بوسعي أن أقوم بخطبة لمدة نصف ساعة بدون تلمس الكلمات والتعابير أو البحث عنها بقلق في نصي الخفي. كان الجمهور

يراقب كل هذا وقد كسبت احترامه. فعندما بدأت كنت خجولاً ومتلعثماً ومضحكاً، وها أنا اليوم أمامهم قادر على مخاطبتهم بطلاقة بلهجتهم. ربما كنت أخطئ في استخدام المصطلحات والقواعد اللغوية، ولكن لم يكن هناك خطأ في المعاني التي أقصدها وأطلقها بجرأة وشعور بالقناعة وأحث بعضهم في النهاية على أن يوافقني.

فأصبحت انتقي كلماتي. لم يكن لدى حزبنا ليم تشين سيونغ أو أونغ إينغ غوان، وكلاهما يتحدثان بلغة الهوكين القومية بالنسبة إليهما. كان الناس يعرفون أنني بدأت من الصفر عام 1961 ولم يكن لديهم شك في تصميمي ومثابرتي. «أنا من الهاكا» وهذه أقلية تعيش وسط متحدثين بلهجات أخرى يفترض أنهم لغويون ممتازون. وهذا ما زاد من شهرتي. لقد ظنوا أنه أمر طبيعي بالنسبة لي أن أتعلم اللغات بسهولة. ولكن تشو كانت تعلم كم تجشمت من الصعاب كي أتعلم الهوكين بإتقان.

بعد الهزيمة في هونغ ليم بوقت قصير (واجهتنا هزيمة أخرى). فقبل التصويت لهونغ ليم بتسعة أيام توفي بهار الدين بن محمد عارف، عضو جمعيتنا، بأزمة قلبية. كان شاباً مالاوياً في الثلاثينيات من العمر يعمل صحفياً في صحيفة «أوتوسان ميلايو»، ومستشاراً في حزبنا، نشيطاً وذكياً وواعداً. كانت وفاته صدمة، وتعني إجراء انتخابات فرعية. كنت أعرف أن الشيوعيين سوف يحاولون الآن تعقبنا. وسيرون في هونغ ليم إشارة إلى أن الناطقين بالصينية الذين كسبناهم في الانتخابات العامة كانوا أكثر تأييداً لأونغ منا وأننا نحن الناطقين بالإنكليزية لم يكن لدينا نصير حقيقي في أوساط جماهير الناطقين بلغة الهوكين.

في ذلك اليوم من أيام شهر أيار، بعد أن ذهبت إلى المؤتمر النقابي الحاشد في ملعب جالان بيسار، قررت أن أترك بصماتي. مستشهداً بالتعبير الشيوعي لليم تشين سيونغ «ابحث عن اتفاق وحافظ على الخلافات»، وهو شعار

ماوزيدونغ إذ كان كثيراً مايردده عندما يدعو إلى جبهة متحدة حول موضوعات معينة. ولكي أوضح أن حزبنا لن يطالب بإلغاء «مجلس الأمن الداخلي» عندما يراجع الدستور عام 1963 قلت: «ابحثوا عن اتفاق إذا كنتم ترغبون، ولكن موقف هو حزبنا: حافظوا على خلافاتكم، وابحثوا عن اتفاق إذا وجدتم حزبنا ضد مصالحكم». كنا نعتقد أن المسائل الأساسية حول التغيير الدستوري ينبغي أن تظل مفتوحة حتى عام 1963، ولكن بسبب التطورات قبل وبعد وأثناء انتخاب هونغ ليم الفرعي، قررت أن أعالجها مبكراً.

بعد بضعة أيام جاءت فتاة صينية مرافقة للسواح لترى تشو في المكتب ومعها رسالة لي. وكانت الفتاة نفسها قد حملت إلي في وقت مبكر من ذلك العام مذكرة من «بلين» يطلب مني فيها أن أحدد الاسم المستعار الذي سأستخدمه عندما أتواصل معه. فقررت أن أستخدم كنيته «فانغ» وأن أستخدم الاسم الأول «بينغ أن» الذي يعني «السلام والسكينة» سألني هذه المرة ما إذا كنت سأقابله، وإذا كان الأمر كذلك فلأطلب رقم الهاتف التابع لمخزن روتشور رود لبيع العجلات.

ترددت. فعندما تقابلنا أول مرة كنت مجرد عضو جمعية. أما الآن فقد أصبحت رئيس الوزراء. وإذا اكتشف أنني أتصل بعدو فسيكون الأمر في غاية الإحراج. فأنا سأذهب إلى لقاءه في موقع سري ما وحدي. إذا كنت أشكل تهديداً لخططهم فإن الشيوعيين سيتخلصون مني بهدوء . قررت أن أقوم بمخاطرة محسوبة لأعرف ماذا يدور في خلده. قد يكون ذلك خطراً عليهم أيضاً. فربما أذهب إلى الاجتماع وقد أعلمت الشرطة مسبقاً بذلك. قد يعدون له كميناً. ولكن باختيار اسم مستعار يتضمن اسمه الأول، فسأقول إنني أعرفه، بوصفه شقيق عضوة البرلمان في حزبنا فونغ ين تشينغ. ولو أنني كنت أريده أن يعتقل لما تصرفت هكذا، وهذا ما يجعله متأكدا من أنني مخلص له. وعلي أن أنتهز الفرصة بأنه هو أيضاً لا يخدعني أو يستغل موقفي الهش.

عندما حادثته بالهاتف تأكدت أن الصوت الذي أجاب هو صوت الشخص الذي اتصل بي أول مرة عام 1958. ووافقنا على الموعد نفسه في الساعة الثامنة مساءً. مرة أخرى استخدمت سيارة أبي الصغيرة من نوع «موريس ماينور». وبعد جولة في الطريق انتهى بنا الأمر إلى «أملاك سان ميشيل»، وهي مجمع نصف مبني من شقق «هيئة الإسكان والتنمية» بعيداً عن شارع سيرانغون.

نالت قدرة وإبداع المنظمة الشيوعية إعجابي. فلا أحد يتورط في هذا الاجتماع إلا، HDB . مشيت إلى بناء غير مكتمل في الظلام. كانت مواد البناء مبعثرة في المكان ولا يوجد ماء ولا كهرباء. وعندما دخلت الغرفة المضاءة بالشموع أشارت الفتاة إلى أن «بلين» ينتظر. كان أساس الغرفة كرسيين وبينهما طاولة . كان يعرف أنني أحب الجعة، وقدم لي جعة «أنكور» الساخنة. فتح الزجاجة وصب لي كوزاً وملأ كوزه. شرب أولاً. كنت آمل ألا أبدي أي تردد قبل أن أشرب كأسي. كان علينا أن يثق أحدنا بالآخر حتى نتحدث بصراحة.

بدا لي أشد نحولاً وهزالاً من لقائنا الأخير أي قبل ما يزيد على سنتين. سألته عن أحواله. فقال: إنها حياة صعبة ومنهكة. قلت: إن ذلك لم يكن يبدو عليه، فقد بدا لي في حالة جيدة. ثم شكرني على مساعدة شقيقته. (فقد أصيبت بحرق عندما كانت طفلة تعرضت ساقاها لحرق شديد مما جعلها ترتدي البنطال دوماً. وفي عام 1960 طلبت زوجتي من يوه تشيم سينغ، الأستاذ في الجراحة، وصديقي منذ أيام الدراسة في لندن، أن يجري لها تطعيماً جلدياً جراحياً). وعندما عاد إلى موضوع السياسة، كان ثمة قلق في صوته. قال: إنه ينبغي أن أتضامن معه بسرعة، مما يعني أنني إذا لم أوافق على وجهة نظره فسنجد نفسينا عرضة لهجوم كما في الأيام الخوالي فشعرت بجو من الراحة. لم أكن قلقاً تجاه عقد صفقة معه. بل كنت أود أن استرضيه ولكن بدون التزام. ولكنني كنت مهتماً بمعرفة ما يريد أن يقوله لي.

استغرقت جلستنا قرابة أربع ساعات من الساعة 8.15 حتى ما بعد منتصف الليل تناولنا خلالها عدة موضوعات. ولكن كان يكرر العودة إلى «إعطاء الشعب حقوقه الديمقراطية وحريته الثقافية، ومزيداً من الحرية في استيراد الكتب من الصين، وإجراءات هجرة أكثر حرية». باختصار كان يريد فرصاً أكبر للنشاطات الشيوعية، وللتوسع الشيوعي. كان يريدنا أن نعمل معاً، لا لأجل الاستقلال أو استعادة القواعد البريطانية ـ فهم يستطيعون الاحتفاظ بها لبضع سنوات ـ بل من أجل الإطاحة «بمجلس الأمن الداخلي».

كان مهتماً بحديثي مع حكومة «حزب العمل الشعبي» وأراد أن يعرف مقاصدي. قلت: إنني إذا استخلصت أن الوضع الحالي سيكون أسوأ من السنوات القادمة فإن الانتظار لفترة الخمس سنوات حتى تنتهي لن يكون ذا فائدة. «حزب العمل الشعبي» (PAP) سيخفق. ولكن بوسعي الاستمرار فقط إذا كان ثمة أمل بنجاح سياساته. شرحت بأن الكثير يعتمد على موافقة «الاتحاد» على سوق حرة بحيث يمكن أن تتوفر فرصة أفضل لنا كي نقوم بالتصنيع وخلق مزيد من فرص العمل. سألني، ما إذا كنت أتوقع الحصول على اندماج من «التونكو» سريعاً. أجبت بأنه لا يوجد احتمال فوري لهذا. فالتونكو قد توجه ضد سنغافورة. فنحن صينيون جداً، وقد كان الصينيون موالين للشيوعيين كثيراً.

ضغط علي تكراراً كي أوافق على أن يكون الهدف الفوري لمباحثات عام 1963 الدستورية هو إزاحة «مجلس الأمن الداخلي». وبعد ملاحظة لغة جسده، ونبرة صوته، وركبه كان يريد لحزبنا أن يستمر، ولكن عباراته كانت توحي بأنني سأكون أحمق إذا ما وافقته. أوضح أنه يريد أن يلزمنا بأن نعطي مزيداً من الفرص للشيوعيين من أجل توسيع جبهتهم المتحدة من عام 1961 إلى عام 1963. ثم إزاحة مجلس الأمن القومي وأي شيء يمكن للبريطانيين أن يعرضوه.

وجدت أنه لا يمكن إلا كسب القليل عن طريق المراوغة. كنت عضواً في الحكومة. وإذا وافقته الآن فإنه سيرى من أعمالي القادمة أنني كنت أكذب عليه. فلم أجبه بـ «لا» مباشرة، ولكنني قلت: إن من الأفضل له أن يفترض أن حزبنا سيفعل ما كان قد أعلن أنه سيفعله. بعبارة أخرى، إن بياناتي العلنية ما تزال تعبر عن سياساتي في المستقبل. ودع أحدنا الآخر بمصافحة. لم يبد ضغينة أو عداوة. لعله كان مندهشاً لأنني رفضت أن ألزم نفسي، في الوقت الذي كنت استطيع أن أقول ما يبدو ملائماً ثم أتراجع عن كلمتي فيما بعد.

شعرت في ذلك الوقت أنه لم يكن يفهم الوضع تماماً، وأنه طالما لم تعط بريطانيا الاستقلال لسنغافورة فإن لديها القوة لإلغاء الدستور. فطالما أن السيادة والقواعد ما تزال في يد الإنكليز، فمن الحماقة من جانبه أن يعتقد أن بالإمكان إزاحة «مجلس الأمن القومي» وبناء قوة شيوعية في سنغافورة من أجل نسف الاتحاد. لقد فهم الأمور خطأ. فالشيوعيون لا يستطيعون أبداً أن يسيطروا على سنغافورة بدون أن يسيطروا أولاً على الملايو، ومع هذا فقد كان يأمل أن يستخدم سنغافورة لقلب الحكومة في كوالا لامبور. كيف يمكن أن يتصور أن البريطانيين سيوافقون على ذلك؟ في الواقع إنني أخبرت سيلكيرك في اجتماع لمجلس الأمن القومي أن الشيوعيين يريدون بأي وسيلة جعل الجزيرة قاعدة ينطلقون منها لتحرير كل «الاتحاد» وكانوا يريدون تشجيع الشوفينية الصينية بالعزف على وتر مخاوف الصينيين من السيطرة الملاوية إذا حدث اندماج.

أخبرت سيلكيرك ومور أن الشيوعيين كانوا يعتقدون أنه لا حاجة لاتخاذ عمل ضد القواعدُ البريطانية في الوقت الحاضر لأنها لم تكن مفيدة وقت الحرب. كما لم يوافقوا على الآراء الاقتصادية التي كانت في صالح الاندماج، واعتقدوا أنهم يستطيعون الاعتماد على المساعدة الصينية الشاملة كما هو الحال بين الروس وكوبا. إذا لم تنضم سنغافورة إلى «الاتحاد» بسرعة، فسيخرج الأمر عن نطاق القدرة على التصرف، ولكن إذا طرح اقتراح بالاندماج

على الشعب في غضون تسعة أشهر إلى سنة، فمن المحتمل أن ينفذ. وبعد ذلك سيكون الوقت متأخراً جداً. أكدت لمور أننا في وضع عصيب وإذا سمح البريطانيون للشيوعيين بالاعتقاد بأنه ستكون هناك سنغافورة موالية للشيوعية فسيجلبون الاضطراب إلى كلٍ من سنغافورة والمالايو. كنت متأكداً بشكل مطلق أنه حتى إذا وافق البريطانيون على البناء الآن، فسيعلقون الدستور لأن الأمور لن تكون تحت التصرف. سيكون هناك أعمال شغب وعنف، وحمامات دم وسيقاوم الشيوعيون القوات البريطانية التي ما تزال موجودة في الجزيرة كحق من حقوق الاستقلال.

ولكن لم يكن من شأني أن أنقل هذا إلى «البلين».

22. مفاجأة التونكو المذهلة بشأن الاندماج

وصل صدامنا مع الشيوعيين إلى الذروة، ولكن في مسألة الاندماج مع الملايو التي كنا نعد لها لم نحقق أي تقدم. كان موقف التونكو تجاه سنغافورة غير مشجع إلى حد بعيد، وكان يرد أو يعرقل أي اقتراح للإتحاد يقدم إليه. كان عنيداً في رفضه للإتحاد تحت أية ظروف، وينتهز كل فرصة ممكنة ليعبر عن ذلك بوضوح. وفي أيار عام 1960 أعلم الطلاب الملاويين في لندن أن التفكير السياسي في سنغافورة له طابع عرقي، ولا يتفق مع أي اتحاد وإضافة 1.3 مليون صيني إلى الجزيرة سيقلق الملاويين، ويخرب الجو الهادئ السائد هناك.

وقال: (كثير من ذوي الثقافة الصينية والمهاجرين الجدد إلى البلاد سيكونون موالين للصين وأقل ميلاً لسكان الملايو). كانت تعليقاته مطابقة لتوجهات «التونكو».

لم يكن باستطاعته أن يكون صريحاً ومنفتحاً على الرأي العام. وعندما سئلت في حزيران 1960 في برنامج إذاعي حول آفاق الاندماج، قلصت الآمال بآفاق الاندماج قريباً وأوضحت أن الشيوعيين سيضعون مختلف العقبات في وجه الاندماج. كما أوضحت أن كثيرين من شيوعيي سنغافورة لديهم انتماءات شيوعية، وعلينا أن نبين بصورة واضحة، وأن نقرر بطرق عملية وملموسة أن ولاءهم هو للملايو أساساً.

ما كان يقلقنا على وجه خاص أن «التونكو» لم يكن متحمساً للاندماج، وكان يشعرنا بألا نتعلق بآمال كبيرة كذلك. وهذا ما كان يتسرب إلى الصحافة باستمرار، وهذا كان يعني أنه كان يريد سنغافورة مستقلة. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر)، أعلن ليم يوهوك و(تحالف شعب سنغافورة) أنهما يؤيدان إقامة

سنغافورة كدولة مستقلة أولاً، وأن تحقق الاندماج مع ماليزيا فيما بعد. ولكنني كنت قد أوضحت لسيلكيرك من قبل أن هذا مجرد هراء. فإن سنغافورة المستقلة الواقعة تحت نفوذ الشيوعيين سوف تعارض إلى أقصى حد قبل أن تسلم استقلالها إلى الاتحاد.

كان سيلكيرك، الابن الثاني لدوق اسكتلندي، طويلاً، نحيلاً، منحنياً قليلاً ويبدو ارستقراطيا. شعره أشعث طويل، وله وجه كالح ذو تعبير خبيث في أغلب الأحيان، ومظهر محير عندما تحاصره مشكلة. لم يكن يتمتع بذهن حاد، ولكن كان ذا ذكاء اجتماعي قوي وسحر رجل نبيل لا يريح الرجل العادي. تعاملنا جيداً ولكن نائبه، فيليب مور، لا بد أنه شعر بنفاد صبري من وقت إلى آخر، ويشك في أنني لا أقدره كرجل ذي شأن. ولهذا فإنه من أجل أن يؤكد أهميته كان يذكرني باستمرار أن سيلكيريك كان وزيراً في الحكومة وما يزال على صلة مباشرة برئيس الوزراء.

بعد ثلاثة أشهر أخبرني جيوفري توري، المبعوث الخاص لبريطانيا في اتحاد الملايو، أن التونكو أسر له بأنه وجد من المحرج تماماً عندما أعلنت أنا، أو أي متحدث رسمي آخر في صورة بيان رسمي أن الاتحاد احتمال ممكن، وذلك يعود لسبب واحد وهو أنه يريح ويشجع معارضيه، الاشتراكيين، ومعظمهم من الصينيين بصورة خاصة، الذين كانوا يتطلعون إلى ممارسة السلطة مع حزبنا، ومن خلال استلام السلطة ضمن السبل المقبولة. كما أن فكرة أي تقارب مع سنغافورة سوف تزيد من المخاوف من أن سياسته سوف تسمح لأهالي سنغافورة أن تزداد مخاوفهم بأن سياساته سوف تتيح للصينيين أن يسيطروا على المالاويين. وبالرغم من كل الجهود التي بذلت لم يرغب كل من التونكو أو رزاق أو إسماعيل أن يجلسوا معي وأن نتحدث بصراحة حول المستقبل البعيد لسنغافورة والملايو. لم يريدوا أن يفكروا بالمخاطر التي تحيط بالملايو وسنغافورة إذا ما استقلتا تحت هيمنة الشيوعيين.

وأخيراً من أجل أن أبقي آمالي منتعشة كنت أظن أن البريطانيين يشجعوني على وضع صيغة أوسع، لصياغة اتحاد لايضم سنغافورة فقط ولكن مايتبعها في بورنيو (شمال بورنيو، وبروناي، وساراواك) بحيث لا تثير الاعتبارات العرقية الأغلبية الانتخابية المالاوية. وكان اقترح سيلكيرك ومور أن أعد ورقة لأرفعها إلى «التونكو» الذي كان الموضوع لا يعود إليه بل إلى رزاق. كنت افترض أنهم تحدثوا إلى رزاق عن طريق جيفروي توري، وقد أعددت الورقة في أوائل أيار 1961 لأعطيها إلى إسماعيل من أجله.

البريطانيون يعملون بحماسة لتأييد روبرت تومبسون، وهو مسؤول مدني مالاوي كان مسؤولاً عن شؤون الدفاع في المالايو، وكان على صلة وثيقة مع عبد الرزاق بوصفه وزيراً.

على أن الرجل الذي كان له الدور الفعال لدى التونكو، هو دانكان ساندیز، وزير الدولة لشؤون الكومونولث. وكان قد جاء إلى سنغافورة في كانون الثاني (يناير) 1961 من أجل أن يخبر الحكومتين أن بريطانيا تسعى إلى أن تنضم إلى (السوق الأوربية المشتركة). وانتهزت هذه الفرصة لأخبره بالخطر الذي نواجهه إذا لم يحدث اندماج في عام 1963، فعندما تأخذ المباحثات مجراها بأن سنغافورة مستقلة ستكون شيوعية بنتيجة حتمية. كان علي أن أترك تأثيراً لديه، وقد أخبرني مور فيما بعد أن سايدنز قال: إنه لم يجد قائداً قوياً يضطلع بهذه المهمة. وقد دلت السجلات البريطانية أن سايدنز تحدث إلى «التونكو» وأن سيلكيرك ذكر أن سيدني قال له: إن المباحثات جرت بسهولة رغم عدم توفر تفاصيل لديه. وقد أتيح لي فيما بعد أن أتعرف على ساندیز عن قرب. كان صريحاً للغاية. وكان واثقاً من نفسه بحكم قرابته لوينستون تشرشل، كان يتمتع بالتصميم والشجاعة. وكنت سعيداً بمعرفته، فقد عمل بجد على اندماج «ماليزيا» الكبرى، وكان لابد أن يحصل على تأييد هارولد ماكيلان، رئيس الوزراء البريطاني، لحث التونكو على ذلك.

في 27 أيار 1961، اعترف التونكو في مؤتمر صحفي مع مراسلين أجانب من جنوب شرق آسيا في سنغافورة أن الملايو:

«سوف تتفاهم آجلاً أم عاجلاً مع الإنكليز وشعب سنغافورة، وشمال بورنيو، وبروناي، وساراواك. ومن السابق لأوانه التنبؤ بالمستقبل، ولكن من المؤكد أنه ينبغي أن نتطلع إلى الهدف حيث تتوحد هذه المناطق في إطار تعاون سياسي واقتصادي».

قال: إن الصينيين يميلون بشكل طبيعي في سنغافورة لجعل الجزيرة (الصين الصغيرة). ولكن من مصلحة الجميع إذا استطاع شعب سنغافورة و«الاتحاد» أن يجعلا من الملايو ما كانت عليه ـ وطننا الوحيد والمتحد. كانت تلك بمثابة مفاجأة مذهلة. إذ لم يكن ثمة إشارة سابقة تدل على أي تغيير في موقفه الراسخ بأن الملايو لن تضم سنغافورة. وفي اللحظة التي قرأت فيها ما قاله التونكو عرفت أنه ربما ظن في شهر أيار عندما اجتمعنا أن الاندماج، كما قلت له، غير متوقع قبل عدة سنوات لأن «التونكو» لا يثق بالصينيين في سنغافورة.

لم يفسر التونكو آنذاك لماذا غير رأيه. وفيما بعد، في شهر تشرين الأول أخبر المجلس النيابي (البرلمان) في كوالا لامبور، أنه لم يكن يفضل الاندماج لأنه يشكل خطراً على أمن الملايو، ولكن الظروف تغيرت. ولم يفسر لماذا تغيرت. أستطيع أن أخمن فقط أن البريطانيين أقنعوه بأن عليه أن يضبط الأمن في سنغافورة من أجل حماية الماليو نفسها، نظراً لأن الغالبية الناطقة بالصينية في الجزيرة عرضة لإغراءات الشيوعيين. وكنت أعتقد أن إسماعيل قد فهم أن مشكلات التخريب في الإقليمين وثيقة الارتباط فيما بينهما. فقد رأى بأم عينه على سبيل المثال على أنه بالرغم من أن نصف طلاب (جامعة نانيانغ) كانوا من الملايا، إلا أنهم كانوا يشكلون أكثرية الزعماء اليسارين و مثيري المتاعب، وبوسعهم أن يثيروا مزيداً من الاضطرابات بعد تخرجهم وعودتهم إلى «الاتحاد».

حتى سيلكيريك ومور لم يتوقعا (المفاجأة السعيدة) للتونكو. وكان البريطانيون قد ناقشوا مطولاً مفهوم (ماليزيا الكبرى) حلاً لهدفهم بعيد المدى لجعل مستعمراتهم في المنطقة في اتحاد واحد قبل أن تمنح الاستقلال. ولكن المسألة الحاسمة أنهم ظنوا أن حزبنا (PAP) في سنغافورة قد يتحول إلى حزب تحت إدارة الشيوعيين؟! وقد أجبت عن هذه المخاوف علناً، مظهراً إصراري على الاندماج لتحقيق الاستقلال لسنغافورة، وهذا ما سيمنع الحزب الشيوعي المالاوي MCP من الوصول إلى السلطة. وعندئذٍ فقط بدأوا يفكرون بالمشروع جدياً.

في أيار عام 1961 بدا التونكو مستعداً على الأقل لأخذ التحالف مع سنغافورة بعين الاعتبار ضمن «اتحاد ماليزيا» الأوسع ولكن طوال الأشهر الستة التالية ظل هذا مجرد أمل يداعب الخيال. ومن حسن الحظ أنني استطعت خلال هذه الفترة أن أكسب موافقة معظم أعضاء البعثة البريطانية، ولاسيما فيليب مور.

وفي عام 1961 كنا في التيار ذاته. وجد البريطانيون صعوبات تواجه حكومتنا عندما تتعامل مع الشيوعيين، وأنها بدت تدفع ماليزيا وتخلق إحساساً بحتميتها. ثم جاء جوابهم عن اقتراح التونكو بعد أسبوعين في سلسلة متناسقة من البيانات الإيجابية. في البداية وصفها سيلكيرك في 13 حزيران بأنها «خطة قوية طويلة الأجل»، وبعد أسبوع قال ماكميلان؛ جواباً عن سؤال من فينر بروكواي في مجلس العموم:

«لاحظت باهتمام الاقتراح الأخير الملفت للنظر لرئيس وزراء اتحاد المالايا الذي يفيد بأن الاتحاد سيحظى عاجلاً أم آجلاً بتفهم الحكومة البريطانية وتفهم سنغافورة وشمال بورنيو، وساراواك وبروناي في خطة ستجعل هذه البلدان تجتمع في اتحاد اقتصادي وسياسي أوثق. وكان بيان تونكو عبد الرحمن قد حث على مناقشة بين هذه البلدان، والحكومة ستكون راغبة في أخذ ردود أفعالها في أخذ الاقتراح بعين الاعتبار.... أعتقد أنه لأمر جيد أن هذه المسألة أثارت المناقشة وحثت عليها».

بعد ذلك دعا سيلكيريك إلى اجتماع في 27 حزيران للحاكمين البريطانيين في ساراواك وبورنيو الشمالية والمفوض السامي للملايو والمفوض السامي لبروناي. تحدث غود، حاكم بورنيو الشمالية عن الحاجة إلى التقاط البرهة الصحيحة لدفع خطة التونكو بشأن ماليزيا القادرة «لضمان نجاحها». وفي 30 حزيران بعد الاجتماع بفترة قصيرة طار سيلكيرك إلى لندن لمناقشة الخطة مع الحكومة.

هذا العرض العلني للتأييد البريطاني للاندماج وماليزيا لابد أنه قد أثار حذر الشيوعيين. فمبادرة تونكو كانت تشق طريقها، ولا بد أن «بلين» يأخذها في حساباته. ولكن تحريضهم سرعان ماخف عندما عاد ليم تشين سيونغ بسلسة من التصريحات ضد الاندماج.

وفي 2 حزيران نشر زعماء النقابات «الستة الكبرى» ـ وأصدر ليم تشين سيونغ ونونغ سوي سيوان مع سيدني وودهال، وجاميت سينغ، وس.ت باني ودومينيس بيوتشيري، بياناً يدعو إلى «حكومة ذاتية داخلية حقيقية وليست اسمية فقط» تسيطر على الأمن الداخلي وتحل «مجلس الأمن الداخلي». ودعوا دائرة «أنسون» الانتخابية للتصويت إلى حزبنا (PAP) من أجل الانتصار في المباحثات الدستورية والتحقيق المبكر لمطالبهم. ثم آثار ليم قلق الجبهة الشيوعية المتحدة بإعلانه بوجود 42 نقابة تؤيد حزب العمل الشعبي اليساري والمعادي للاستعمار في الانتخابات القادمة. وبكلمة أخرى لو أن حزبنا لم يكن يسارياً ومعادياً للاستعمار بدرجة كافية بالنسبة إلى هذه النقابات لما كان قد حصل على تأييدها بوصفها ممثلة «لرغبات الشعب».

كان هذا بمثابة تحذير لي لألعب بطريقتهم. فأجبت «إن الاستقلال الآن من خلال الاندماج في وحدة سيكون أوسع أمامنا بشكل واضح وسيتحقق ذلك بأسرع مما تخيل أي واحد قبل سنتين». وأوضحت أننا لن نسعى إلى إزالة «مجلس الأمن الداخلي حتى نضمن أمننا ضمن الاتحاد من خلال الوزن الانتخابي لقاعدة مالايو الجماهيرية ويعود إلى «بلين» ماذا سيفعل بعد ذلك.

في 10 حزيران، يوم الاقتراع لانتخابات «أنسون» الفرعية، رشح حزبنا المالاوي محمد بن أوانغ. والذي كان رئيساً لمجلس «اتحاد النقابات»، ولكن الترشيح لم يرق للشيوعيين. وكان قد اعتقل لفترة قصيرة ثم أطلق سراحه. كان مع ديفان نير ولهذا كان واحداً منا. إذ سيواجه ديفيد مارشال، الذي كان «مرشح حزب العمال»، والذي كنت متأكداً أن ليم تشين سيونغ وفونغ قد حرضاه على الترشيح. وفي 14 حزيران أفادت الصحف أن مارشال زار «الاتحاد» بعد إعلان تونكو أمام «اتحاد المراسلين الأجانب» وأنه كان مقتنعاً أنه لن يكون هناك اندماج في غضون عشر سنوات. ودافع عن استقلال سنغافورة (الأمر الذي يتطلب آلياً إبعاد مجلس الأمن الداخلي)، وقال: ما إن تحصل سنغافورة على الاستقلال حتى يكون الاندماج أسهل.

وفي أعقاب انطلاق الحملة مباشرة أفاد جون لينسيل، مدير الفرع الخاص أن جماعة شيوعية ما أرادت أن تغتالني. إذ سيكون الخطر أكبر في أحد اللقاءات الانتخابية التي ستعقد في العراء، حيث سيكون من السهل على من سيقوم بالاغتيال أن يصيب المتكلم على المنصة ويلوذ بالفرار. وتركوا لي أن أقرر درجة الأمن المطلوبة، وما إذا كنت سأقوم بالظهور علانية أصلاً. لم يكن لدي خيار. فالاختفاء عن الأنظار أثناء حملة انتخابية فرعية بسبب تهديد بالاغتيال فحسب سيكون مدمراً سياسياً. ومن ناحية أخرى، فإن الاستمرار بدون تغطية أمنية سيكون حماقة، في حين أن الأمن المكثف سيبدو دفاعياً. طلبت من «الفرع الخاص» أن يكون مختفياً قدر الإمكان ولكن مع اتخاذ أقصى الاحتياطات.

في تلك الأمسية تحدثت في دائرتي. كان جواً مألوفاً وودياً تجاهي. وشعرت بالأمان. ولكن كان هناك مقابلات عامة أخرى في مناطق مجاورة أقل ودية. شعرت بعدم الراحة، ولكنني قبلت بالوضع بوصفه جزءاً من الحياة السياسية في ظروف مالايو و سنغافورة المبتليتين بالإرهاب في تلك الأيام.

كنت ميالاً إلى الاعتقاد أن الشيوعيين كانوا يريدون أن يزرعوا الخوف في نفسي ليروا ردة فعلي. ووجدت أنه لن يكون في مصلحتهم أن يغتالوني في حين أن موقفي الشعبي قوي. ولم أكن عدواً للشعب كما كان ليم يوهوك عام 1956. كما انهم لم يكونوا يرغبون بالقيام بعملية تطهير واسعة ضد الجبهة المتحدة ـ حزبنا والنقابات والمؤسسات الثقافية ـ فإذا خسرت في معركة الدعاية من أجل تصويري «دمية للإمبرياليين» فسيكون الأمر مختلفاً.

وكما حدث فقد شنت «دائرة التحقيقات الجنائية» و«الفرع الخاص» سلسة من الغارات في 18 حزيران لاعتقال المبتزين وغيرهم، ووجدت ثلاث قنابل يدوية مخفية في مقر إقامتهم. ولكن التحقيقات أظهرت أن مخبراً قد «فبرك» مؤامرة الاغتيال وزرع القنابل اليدوية بعلم عنصر من عناصر «دائرة التحقيقات الجنائية». ومع هذا، إلى أن تبين أن التهديد كان قصة ملفقة، كانت تواجهني مشكلة حقيقية وهي كيف أرد عليه؟.

فقبل الاقتراع بثلاث أيام قلت: إنه سواء انضمت إلينا ولايات شمال برونيو أم لا فعلينا أن نناضل من أجل الاندماج بين سنغافورة والاتحاد بشرطين لازمين ـ الحرية في سياستنا التربوية والعمالية ـ كنت أعلم أنني إن لم أستثن هذين من الإشراف الاتحادي فلن نحصل على تأييد الأغلبية في سنغافورة. كانت سياسة مالايو التربوية تنفذ ضد احتجاجات «المدارس الصينية» وغرفة «التجارة الصينية» لأنها كانت تريد إحلال التعليم بالمالوية بدلاً من الصينية والإنكليزية لتكسب مساعدة الحكومة. وكان هذا غير مقبول على الإطلاق بالنسبة إلى غير المالويين في سنغافورة. حتى ذوي الثقافة الإنكليزية يرفضون الاندماج على هذا الأساس، أما الناطقون بالصينية فسيلجأون إلى العنف.

وفيما يتعلق بالعمل كانت سياسة المالايو قاسية تجاه النقابات لأنها كانت تجابه التخريب الشيوعي، كما أنها لم تكن تؤمن بالنقابات المناضلة. وإذا كان لوزارة العمل ووزارة الداخلية في كوالا لامبور سيطرة على تسجيل وصل النقابات، فإن العمال وزعماء الاتحادات في سنغافورة سوف يعارضون ماليزيا بالتأكيد.

وفجأة، قبل يومين من الاقتراع، وقّع ثمانية من أعضاء الجمعية في حزبنا رسالة مفتوحة يطلبون فيها من تشين تشي، بوصفه زعيم حزب (PAP) أن يعلن تأييد الحزب لبيان «الستة الكبار» وأن يدعو إلى مؤتمر لفروع الحزب الواحدة والخمسين لتفحص دورها الراهن في الوضع السياسي الحالي. ومن أجل استبعاد نسف الثقة الشعبية بالقيادة والتأثير في التصويت، فقد كرروا مطالب ليم تشين سيونغ: وهي تحرير المعتقلين السياسيين وحل «مجلس الأمن الداخلي» وتحقيق حكم ذاتي داخلي كامل. ولما كنت لا أتساهل فقد قرر «بلين» أن يجعل حزبنا يخسر أنسون.

وفي عشية الانتخابات طلبت علانية من أمناء السر الثلاثة ـ ليم تشين سيونغ، وفونغ، وودهال أن يستقيلوا. قلت: إن هؤلاء الثلاثة وأعضاء الجمعية الثمانية يريدون أن يرغموا حزبنا على القبول بنهجهم، وإلا فإنهم سينقلبون على القيادة ويسيطرون على الحزب من أجل استخدامه لأغراضهم.. وما هو واضح فمن أجل منع الاندماج فإن النقابيين الستة مستعدون لفعل أي شيء، حتى لتدمير حزبهم المرتبطين به. وفي جهد اللحظة الأخيرة لتحويل الأصوات عن حزبنا (PAP) نحو مارشال كانوا مستعدين لسحب العقبات كافة.حتى سكرتير فرعي انقلب علي، ولما كان يعمل في «هيئة ميناء سنغافورة» ولديه نفوذ في أنسون القريبة من الميناء فقد كلفنا الكثير من الأصوات في أوساط عمال حوض السفن الصينيين. وفي ليلة التصويت، 15 تموز؛ كسب مارشال بأغلبية ضئيلة تقدر بـ 3.598 صوتاً (43.3%) أمام محمود بـ 3052 صوتاً (36.7%) وحصل SPA على 17.8 % من الأصوات.وفي ذروة انتصاره أشار إلى مارشال في خطبة انتصاره قائلاً:

«استقل، ولعل في اعتزالك تتعلم التواضع والصفات البشرية بحيث تكون قدرتك التي لاشك فيها في السنوات القادمة غير أنانية وأمينة في خدمة شعبنا».

كنت شديد الانهماك بالمعركة القادمة كي أرد عليه. فقد أظهر الشيوعيون ثانية أنهم تغلغلوا في المراتب العليا للنقابات والحزب بحيث بات بإمكانهم شق الحزب، محولين الأصوات إلى شخص لا يعتمد عليه. وفي رسالة إلى تشين تشيو بوصفه رئيساً لحزبنا في 17 تموز عرضت أن أستقيل كوني رئيساً للوزراء. وقلت: إن ليم تشين سيونغ ورفاقه سوف يحاولون إخضاع الحزب والحكومة وإكراههما على التخلي عن ماليزيا، في حين أن الحزب بحاجة إلى أن يكون موحداً وراء قائده.

في اليوم نفسه أجاب تشين تشي بأن اللجنة التنفيذية المركزية مجمعه على اختياري رئيساً للوزراء بعد الانتخابات العامة.

«أن الدعوة إلى استقالتك ـ كرئيس للوزراء ـ من قبل خصومك ما هي إلا من أجل إرباك الشعب بشأن قضية الاندماج الحيوية بين سنغافورة و«الاتحاد»، وهو الهدف الذي تأسس من أجله حزبنا والذي لا نستطيع أن نحيد عنه. عرضت اقتراحات بأنني ينبغي أن أكون رئيساً للوزراء في مكانك. دعنا لا ننخدع بهذه المحاولة لشق وحدة الحزب وقيادته».

كنا نعلم أننا مقبلون على معركة. فبعد خسارة «أنسون» كان ينبغي علي أن أتأكد أن كل عضو في «الجمعية» (البرلمان) من أعضاء الحزب يعرف هذا وينبغي أن يساندنا. أصبحت المعركة الآن سارية. وقد وصلنا إلى مفترق الطرق مع جناحنا اليساري في الحزب. كنا نريد تطهير الحزب من أي متذبذبين أو مترددين في «الجمعية»، وإرغام الشيوعيين على مواجهتنا بشكل مكشوف. وقررنا أن نطلب التصويت على الثقة وأن نفرض معركة مكشوفة قبل أن يتاح لهم الوقت لإعادة التفكير في استراتيجيتهم.

23 . حفلة شاي في صالة عدن

قدمت طلب الثقة في الحكومة في 2 تموز (يوليو) عام 1961 كي أميز ما بين الأنصار وغير الأنصار في «الجمعية».

في 18 تموز، وقبل يومين من التصويت على الثقة أعلمني «الفرع الخاص» أن ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سيوان، وسدني وودهال وجيمس بوتوتشيري كانوا يتناولون الشاي مع سيلكيرك في «قاعة عدن». وكان هذا أمراً غريباً. ففي مواجهة أزمة وانقطاع وشيك في العلاقات مع الأعضاء غير الشيوعيين في الحزب، كان ليم وفونغ يتقابلان بانسجام مع عدوهما الرئيس ـ البريطانيين ـ. واستنتجت أنهما يحاولان اكتشاف ما إذا توصل مفوضوهم الموالون للشيوعية في «الجمعية» إلى الأغلبية، فسيكون بوسعهم تشكيل الحكومة والاستيلاء على السلطة. وارتأيت أنا وكينغ سوي، وتشين تشي، وراجا أن البريطانيين سوف يرحبون بهذه الفرصة لتوسيع الهوة بيننا بحيث تستميل أية مصالحة، أو إعادة تجميع الجبهة الموحدة مابين غير الشيوعيين والموالين للشيوعية في حزبنا في المستقبل.كان هذا يناسبنا فالموالون للشيوعية كانوا كالطوق حول أعناقنا. ولكن علينا أن نكون حذرين في التخلص منهم، أو تجنبهم. فإذا بدونا كالانتهازيين بإسقاطهم بعد أن استفدنا منهم،فسوف نخسر قاعدنا الشعبية من الناطقين بالصينية. وكان الاندماج المسألة الكاملة التي ينبغي أن نعمل عليها.

فمنذ بيانهم الأول في 4 حزيران 1959، الذي يعلنون فيه تأييدهم المطلق لملايو مستقلة وديموقرطية غير شيوعية وتحقق استقلال سنغافورة عبر الاندماج، كانوا قد أكدوا التزامهم بسياستهم هذه مرة بعد مرة. والآن سوف ينتهكون التفاهم الواضح بين حزبنا وبين (الجبهة الشيوعية المتحدة ـ GUF) الذي ناضلنا من أجله وكسبنا الانتخابات. وإذا لم نتجاوز مثل هذا الانشقاق حول هذه المسألة الحاسمة

فلن ننجح أبداً. شعرنا بالتخلص من عبء ثقيل جداً. ولم نعد بحاجة إلى أن نكون لهم غطاء. إما أن ننجح بأنفسنا أو نكف عن العمل. لا يمكن أن نشكر البريطانيين على تآمرهم لجعل الموالين للشيوعية يصلون إلى السلطة لحسابهم فذلك من شأنه أن يظهرنا شركاء في الجريمة. وبدلاً من ذلك قررنا أن نجعل البريطانيين يظهرون بمظهر الشركاء في الجريمة مع أنصار الشيوعيين، بل كانت هذه هي السياسة التي اتبعتها في النقاش حول التصويت على الثقة في الجمعية.

وقد أدت حفلات العشاء والكوكتيل والغداء المتكرر أدت إلى علاقة ودية مابين الأسد البريطاني والسيدين ليم تشين يونغ وودهول ورفاقهما. واعتقد الموالون للشيوعيين أن حزبنا معيقاً بشكل مزعج، وأن البريطانيين الحكماء ورجال الدولة، كانوا مستعدين إلى إحداث حكومة «يسارية» جديدة في سنغافورة بحيث تكون أكثر يسارية من حزبنا، مفترضين أن قواعدهم العسكرية لن تمس.

ما حدث أن البريطانيين أصبحوا مثيرين لغيظهم. فكيف نجحوا! إذ بهدوء وخبث حرضوا الموالين للشيوعيين على محاولة تقييد كل من حكومتنا وحزبنا. وشارك في ذلك ثوريون شبان وغير خبيرين. وفي الأزمة تطلع ليم تشينغ سيونغ وفونغ وودهول إلى المفوض البريطاني من أجل الاستشارة في الثامن عشر من الشهر، «في قاعة عدن» مقر ممثل الإمبرياليين البريطانيين.

شعرنا أن أمراً غريباً كان يجري ولهذا وضعنا مقر المستشار البريطاني تحت المراقبة. يا للعجب! المعادون للاستعمار والثوريون تحولوا نحو استشارات سرية مع الأسد البريطاني... ولعل البريطانيين قد تأملوا أن حزبنا تحت الهجوم والضغط سوف يصارع ثانية أو يقهر الشيوعيين في النهاية، وهو أمر كانوا قد فشلوا كثيراً في حث حزبنا على القيام به. وفي غضون ذلك اقترح البريطانيون على حزبنا أن يتخذ عملاً صارماً ضد التخريب المتصاعد. والحق، أن خطة قد رسمت بحيث تتفاقم الأمور إلى صدام مكشوف مع الشيوعيين بحيث يبقى حزبنا في السلطة، وبذا يصبح ملتزماً بالدفاع عن الاستعمار البريطاني إلى الأبد، أو يستقيل، وبذا يتم التخلص من حكومة شيوعية وغير طيعة للضغط البريطاني.

طلب مني عدة أعضاء في الجمعية من ذوي الثقافة الصينية أن أسحب طلب الثقة. كنت اعتقد أن ليم تشين سيونغ وفونغ يحتاجان إلى وقت لأخذ هذه المضاعفات بعين الاعتبار والتفحص. قررت أن أضغط في هذه المسألة لأن لدي من أعضاء الجمعية ما يمكنني من تحقيق الاندماج عام 1963. كنت أريد من أعضاء حزبنا في الجمعية أن يكونوا مستعدين للتصويت.

أوضح تشين تشي موقفنا عندما قرأ مقاطعَ من الوثيقة التي كتبها أعضاء حكومة سنغافورة وقدمت إلى (مجلس الأمن الداخلي) في اجتماعه الأول في 20 آب 1959. وكانت الوثيقة تبين موقفنا على أنه (غير موالٍ للشيوعيين)، في حين أنه يكشف أن ليم تشين سيونغ هو عدونا الشيوعي الأول. كنت أعرف أن البريطانيين يعتبرونه الواجهة الأكثر أهمية في (الحزب الشيوعي المالاوي) ـ MCP، ومع هذا فقد استقبله المبعوث البريطاني في (قاعة عدن) قبل يومين من تصويت مؤيديه في الجمعية ضد اقتراح الثقة بالحكومة.

استمر النقاش حول التصويت بالثقة من الساعة 2.30 بعد الظهر من يوم 20 تموز (يوليو) حتى الليل، مع فترة استراحة للغداء، وحتى الساعة 4.30 صباحاً من اليوم التالي قبل أن يجري التصويت. كان هناك الكثير من النشاط في أوساط الجماعات المختلفة داخل المجلس نفسه. وكان أنصار الشيوعيين من أعضاء الجمعية يحاولون أن يجمعوا أكبر عدد من أصوات أعضاء حزبنا في البرلمان من أجل التصويت ضد الثقة. كان لديهم ثمانية أصوات. كنا نتوقع أكثر من ذلك بكثير كي يهزموننا، كانت المسألة مسألة عدد. كنا نحتاج على الأقل إلى 26 صوتا كي نحكم بدون تحالف والحكومة الائتلافية ستكون كارثة. إنها ستعني أن حزبنا وتحالف (المنظمة الوطنية الاتحادية) ـ UMNO و(الحزب الشيوعي المالاوي) MCA متهمان كلاهما بالفساد وهذا يعني أن نخسر سمعتنا السياسية القيمة معنوياً.

استمر الجدل حول التصويت بالثقة من الساعة 2.30 بعد الظهر في 20 تموز خلال الليل، مع فرصة لمدة ساعة لتناول الطعام، حتى الساعة 3.40 من اليوم التالي قبل أن يتخذ التصويت.

كان هناك الكثير من النشاط في قاعة الأعضاء وغرفة اللجنة وقاعة الاجتماع ذاتها .فقد كان الموالون للشيوعيين يعملون بدأب محاولين الحصول على أكبر عدد ممكن من أعضاء «الجمعية» في حزبنا للتصويت لصالحهم. كان لديهم ثمانية. وقد توقعنا أن يهزم عدد أكبر، وكان السؤال كم سيبلغ عددهم؟. كنا بحاجة إلى 26 صوتاً كي نحكم بدون ائتلاف. فحكومة ائتلاف ستكون كارثة. إذا كانت تعني أن تضم أشخاصاً من تحالف شعب «سنغافورة» (SPA) أو من المنظمة الوطنية لاتحاد المالاويين (UMNO) وكلاهما ملوث بالفساد. سنخسر عند ذاك أثمن ذخيرة لدينا وهي عدم الفساد.

قررنا أن نترك الحزب يشق طريقه ونجعل الجميع يصوتون كما يشاؤون. فقد كنا نحتاج إلى متطوعين وليس إلى مجندين من أجل خوض الصراع الكريه. سرعان ما تخلى الموالون للشيوعيين عن محاولة اكتساب أعضاء جمعية مالاويين أو من الهنود، وركزوا على المتحدثين بلغتين وذوي الثقافة الصينية. ولكنهم كانوا يحتاجون إلى وقت، وطلب كثيرون تأجيل التصويت حتى اليوم التالي. رفضنا ذلك. وهذا ما جعلهم يلجأ ون إلى إضاعة الوقت وإلقاء خطب مطولة مكرورة.

بين أولئك الذين كانوا يعملون، ثلاثة أعضاء متميزين من الناطقين بالصينية لم يتورطوا في شرك الشيوعيين. كان أشجعهم تشوريوك إنغ. الذي كان يعيش في منطقة بوكيت تيماه الريفية، وهي منطقة زراعية تابعة للشيوعيين.وقد كان يواجه خطر الإيذاء الجسدي ولكنه ظل ثابتاً. وكذلك فعل تشان تشي سينغ، وهو لاعب «جودو» يحمل النطاق الأسود وعمره 26 سنة، إذ كان يتحلى بشجاعة كبيرة كما كان موالياً شخصياً لبانغ بون و لي. وبالمقابل كان هناك لي تيك هيم وهو في الخامسة والخمسين من العمر عمل أميناً للسر في «غرفة التجارة الصينية»، وهو من جيل المهاجرين الأوائل، وموجود في فوجيان. وقف معنا بثبات. لسبب ما لم يكن يشارك طلاب المدارس الصينية الشباب في تطلعهم إلى الصين الجديدة. لعله استخلص العبر مما حدث لأقاربه هناك. ومهما كان الأمر فقد كنت متشجعاً لأنه وقف معنا.

لم نكن متأكدين من مجرى التصويت، وكنا نظن أنه قد يكون النهاية. كنت أنا وتشان تشي سينغ متأكدين من الحصول على 25% من الأغلبية. وهذا ما اعتقدت به سحورة بنت أحمد، وكانت هذه سيدة في السادسة والثلاثين من العمر، وخطيبة مفوهة في الملايو، وهي امرأة بدينة ومتواضعة، تتصف بالاستقامة والبساطة. كانت مريضة في الفراش في (مستشفى سنغافورة العام). وكان قد زارها عدد من أعضاء الجمعية وأخبروها أنها فازت على منافسيها. ولكن في اجتماع للأعضاء في غرفة الاستراحة، قال تشي سينغ: إنه زار سحورة قبل يوم واحد وإنه كان واثقاً من مجيئها إلى الجمعية للتصويت لنا. لم أهتم بالموضوع كثيراً وقلت له: ألا يضيع الوقت، ولكن تشين تشي اعترض بأنه لا ضرر من المحاولة.

كانت سحورة مترددة في المجيء، وأخبرت تشي سينغ بأن زملاءها المالاويين لا يؤيدون الحكومة. ولكنه حثهم على أن يؤيدوها. ووافقت تشي سينغ على الحضور. عبر سيارة الإسعاف وجاءت في الوقت المناسب إلى المجلس.

صوت 26 من أعضاء حزبنا في «الجمعية» مع الاقتراح، وهذا ما أعطانا أغلبية 26 صوتاً من أصوات أعضاء الجمعية الـ 51 عضواً. ولو أننا خسرنا التصويت لكان على الحكومة أن تستقيل. وإلا كان على أنصار الشيوعيين أن يشكلوا الحكومة مع بعض المتسربين من حزبنا، أو ستجري انتخابات عامة، كانوا يعتقدون أنهم سيكسبونها.

كان هدف ليم تشين سيونغ الأول أن يكسب أكبر عدد ممكن من أعضاء (الجمعية) إلى جانبه كي يشكل الحكومة الجديدة. وعندما أخفق حاول بعدة وسائل وأساليب أن يحول دون استمرار الحكومة في التفاوض للاندماج مع «التونكو». وشكل حزباً جديداً باسم «باريسان سوسياليس» (الجبهة الاشتراكية). كان تعاطف تشين سيونغ مع البريطانيين ظاهراً. فقد حاول أن يدافع عن نفسه وأن ينفي تهمة التعاون معهم. ولكن العمال كانوا خائفين من أن يضعه

البريطانيون تحت إبطهم.لقد أصبح هو الآن ورفاقه الموالون للشيوعيين مكشوفين ومعزولين بدون تغطية شيوعية مضمونة. وقد بعثت في الرابع من آب (أغسطس) برسالة مفصلة إلى (ستريتس تايمز) أشرح فيها رأيي به بوصفي أميناً عاماً (لحزب العمل الشعبي) (PAP).

ورغم جميع محاولات المعارضين التقرب من البريطانيين والاجتماع مع المسؤولين منهم، فقد أوضح سيلكيرك أنه لا بديل (لحزب العمل الشعبي)، ولا يوجد حكومة شعبية يمكن أن تكون بديلاً عنه، وأنها المجموعة الوحيدة التي يسمح البريطانيون لها بتقلد زمام السلطة. وقد أوضح سيلكيريك ذلك بجلاء عندما اجتمع مع المعارضين. وأفهمهم أن الدستور لم يوضع من أجل إرضاء السيد كيوان يو. وأوصاهم بلهجة شديدة أن يلتزموا بالدستور وألا يخرجوا عنه.

لم أكن مقتنعاً بأنهم كانوا يناورون. لم يكن سيلكيرك بالسياسي غير المحنك. كان يعرف معنى البروتوكول. واستقباله بوصفه ممثلاً لحكومة جلالتها في سنغافورة، لكلٍ من ليم تشين سيونغ وفونغ شخصياً أثناء الأزمة التي كان مصير الحكومة خلالها في خطر كان دليلاً على أمر مهم. وقد فسر أنصار الشيوعيين هذه الخطوة على أنها إشارة من البريطانيين باستعدادهم للتعاون مع ليم، المعتقل سابقاً، والمحروم بموجب دستور 1958 من المشاركة في الانتخابات. بالإضافة إلى ذلك فإن أياً من الأربعة الذين قابلوا سيلكيرك كانوا أعضاء في الجمعية التشريعية وبالتالي هم غير مفوضين بإجراء أية مفاوضات حول تشكيل الحكومة. لم أقبل تفسير سيلكيرك بأنه قابلهم خارج إطار المجاملة الدبلوماسية، بل لمجرد إعطائهم الجواب الدستوري الصحيح. لقد أصبحنا على أية حال أكثر حرية.

كان د.لي سيوه تشوه السكرتير البرلماني لوزير الشؤون الداخلية، ومؤيدوه يعتقدون أن الشيوعيين سوف يكسبون على المدى البعيد. ولما كانوا قد أغروه بالوعود لجعله زعيمهم ورئيساً للوزراء، فقد تمسك بفرصته الكبيرة. كان مقامراً مدمناً منذ أيامه في كلية الطب. كان يتحلى بطاقة جسدية وصوت جهوري متباه

ومتبجح قليلاً. وكان كينغ سوي، الذي كان يلعب معه الشطرنج قد وجده جريئاً إلى حد التهور. كان يبدأ عادة بمناورة مكشوفة كي يهزم خصمه، ناسياً أن اللاعب الخبير لا يجازف بالمخاطر عندما يستطيع أن يحقق تقدماً ضد مغامر. وفي هذه المرة كان قد شرع بمغامراته الكبرى ـ رئيساً للوزراء أو لا شيء.

صوت حلاقان من أعضاء الجمعية ضد الاقتراح. لم يكونا شيوعيين، ولكن قبل عدة شهور من انتخاب أنسون العربي تقربت منهما كوادر شيوعية، وقاما بكتابة خطب ومقالات لهم. وعندما وبختهما بعد أن سمعت خطبهما في «الجمعية» اعتذرا، ولكن بعد هزيمة حزبنا في انتخابات هونغ ليم الفرعية، فشعرا كالآخرين الذين هزموا، أن مستقبلهما مع النقابات والجماهير.

كان هدف ليم تشين سيونغ الأول أن يكسب أكبر عدد ممكن من «أعضاء الجمعية» إلى جانبه كي يشكل الحكومة الجديدة. وعندما أخفق ذلك جرب عدة خطط ليحول دون تفاوض الحكومة مع «تونكو». وقد شكل حزباً جديداً باسم «باريسان سوسياليس» (الجبهة الاشتراكية). ثم دعا رئيسها د.لي سيوكوه إلى انتخابات جديدة.

ظل ليم تشين سيونغ صامتاً لمدة أسبوع بعد المداولة بشأن الثقة. ثم نشرت صحيفة «سترتس تايمز» في 28 تموز رسالة منه تحمل طابع وودهول وبوتوتشيري. وقد أعلن فيها «دعوني أوضح مرة واحدة وأخيرةً أنني لست شيوعياً أو عضو جبهة شيوعية...» لم يكن يريد أن يعود ثانية إلى المسرح السياسي، وقال حول تعيينه سكرتيراً سياسياً في وزارة المالية «لم أكن عازفاً عن قبول هذا المركز فحسب، بل عرضت أن أنسحب من السياسة إذا رغب (لي كيوان يو) في ذلك. لم يكن يرغب في ذلك بل كان يرغب أن يبين للناس أنني عينت في الحكومة».

أما الاستنتاجات التي استخلصتها من شربه الشاي مع سيلكيريك هي أنه كان لا يبالي بالهستريا المعادية للشيوعية:

«في غضبهم بدأوا يتحدثون بصياح عن الشيوعية والفوضى، متوقعين أن يخيفوا بعض الناس كي يصدقوهم. فاليسار الشيوعي قد سار أشواطاً مع الإنكليز الآن، كما بلغني. يا للسخرية! كانت لقاءاتي مع سيلكيريك قليلة ومتباعدة. وإذا كان اللقاء مع سيلكيريك يجعل المرء متآمراً عندئذٍ يكون السيد لي أكبر المتآمرين جميعاً لأنه يتعامل مع اللورد سيلكيريك أكثر من أي شخص آخر في سنغافورة».

في ذلك اليوم نفسه ألقى خطاباً لمدة ساعتين في اجتماع نقابي تحدث في نهايته مرة أخرى وبإيجاز عن حفلة الشاي:

«فيما يخص شرب ليم تشين سيونغ الشاي وتناول الطعام مع البريطانيين فهو أمر عادي جداً. والسؤال هو ما إذا كان الموقف قوياً أم لا؟. إذ لا نستطيع القول: إننا نشرب الشاي معهم مما يعني أننا نحالفهم». لا بد أنه شعر أن العمال كانوا خائفين من أن يكون البريطانيون قد استقطبوه إلى جانبهم. لأنه ورفاقه الموالون للشيوعية أصبحوا الآن مكشوفين ومعزولين بدون غطاء غير شيوعي ذي مصداقية. ولكن ما كان ليتخلى عن مراوغاته. لو كان عازفاً عن الرجوع إلى السياسة والقبول بموقف الحكومة، فلماذا يقابل سيلكيريك؟

بعثت في 4 آب رسالة إلى «ستريتس تايمز» بوصفي أميناً عاما لحزب (PAP) جاء فيها:

«نحن.. كنا مهتمين جداً بالمشكلات الجسيمة التي ستتجمع بعد الانتخابات. فإحدى هذه المشكلات كانت ماذا سيفعل هو وأصدقاؤه بعد أن تخلصنا منهم. عرض أن يعتزل السياسة ويذهب إلى إندونيسية. في البداية لم يكن هذا عرضاً جدياً. وثانياً، لم نرَ من الصواب والملائم أن نجعل من هذا شرطاً بحيث ينبغي أن يعتزل السياسة قبل أن نقرر دخول الانتخابات كي نربح. كان علينا أن نواجه التحدي الشيوعي سواء أكان السيد ليم موجوداً شخصياً على مسرح سنغافورة السياسي أم لا...

(أما بالنسبة إلى حفلة الشاي) «فإنه لم يفسر بعد لماذا ذهب إلى مقابلة اللورد سيلكيرك؟... ففي تفسير نُشر في الصحافة الصينية في29 تموز أقر بأنه قابل اللورد سيلكيرك لأغراض اجتماعية تاركاً الانطباع بأن مباحثاته مع المفوض البريطاني كانت اجتماعية بحتة. لم يكن ثمة مناسبة اجتماعية يوم الثلاثاء 18 تموز. كما لم يكن هناك ضيوف آخرون إلى جانب ليم وأصدقائه».

جاء التفسير فيما بعد، ولكن ليس من جانب ليم تشين سيونغ. ففي رسالة إلى «ستريتس تايمز» نشرت بعد 9 أيام في 13 آب، استشهد وودهول بمحادثة أجراها بوثيتشيري مع كينغ سوي بعد انتخابات أنسون الفرعية. كان الأخير قد أخبر بوثيتشيري أن التدخل البريطاني كان ضرورياً، وأنهم لن يجلسوا جانباً ويشاهدوا الموالين للشيوعيين يدمرون حزب العمل الشعبي (PAP)، وإذا عارضت القيادة غير الشيوعية ذلك علناً، فإن الحزب من جانبه سيتنحى تاركاً البريطانيين يقضون على الموالين للشيوعية.

وفي اليوم التالي بعث كينغ سوي برسالة يتحدث فيها عن عدة مباحثات أجراها بوثيتشيري معه:

«...بعد أنسون أصبح بوثيتشيري أكثر احتجاجاً. إذ طلب إلي من باب التعقل أن نراجع سياستنا وأن نكيف ليم تشين سيونغ وجماعته. وإلاسيكون البديل تدمير حزب PAP بوصفه قوة سياسية. بيّن ذلك بكثير من الخوف...»

«عند هذا المنعطف دخلت في سلسة من المناقشات الودية الجدية مع السيد بوثيتشيري حول مستقبل الحزب والبلاد. قلت: إنني كنت أعرف أن ليم تشين سيونغ قد ألقى بكل ثقل منظمته النقابية لهزيمة حزبنا في أنسون. وقلت أيضاً: إن ثقل كوادر نقابة ليم تشين سيونغ قد انتشر ضد أمناء سرنا المنظمين وأعضاء اللجنة الفرعية، الأمر الذي أدى إلى إخفاق

بعضهم. وأوضحت أن الوضع لم يكن جديداً. فقد حدث الشيء نفسه عام 1957، عندما شنت الكوادر النقابية الموالية للشيوعيين هجوماً على حزبنا وأصبحوا قيد شعرة من السيطرة على لجنة حزبنا المركزية. قلت، عام 1957،: إن نتيجة هذا الهجوم الموالي للشيوعيين ضدنا قد وضحت بجلاء الفارق الأساسي بين الموالين للشيوعيين والجماعات غير الموالية لهم في الحزب. هذه المغامرة قد أعطت للبريطانيين مبرراً للقيام بالضربة الكبرى».

ظن كينغ سوي أن الموالين للشيوعيين أرادوا أن يرد سيلكيرك لأنهم اعتبروا هذا إشارة إلى أن البريطانيين كانوا على وشك تنفيذ "ضربة كبيرة" أخرى ضدهم الآن. وفي جواب نُشر في 21 آب أعطى بوثيتشيري تفسيراً آخر، مكرراً ما كان قاله وودهول من قبل: ما سعوا إليه مع سيلكيرك هو توضيح لافتراض كان عرضه حزبنا. ولا سيما أنه لا توجد حكومة بديلة لزعماء حزبنا (PAP) الحاليين، فقد كانوا المجموعة الوحيدة التي يمكن للبريطانيين أن يسمحوا لها بتسلم السلطة. ولكن المضامين كانت في الواقع واحدة: إذ كانوا يريدون تأكيداً من البريطانيين بأن يتقبلوا خططهم بحصانة.

وبعد مضي سنوات، أي في عام 1982، أخبر سيلكيريك أحد الصحفيين أن بوثيتشيري هاتَفَهُ، في صباح يوم الثلاثاء، 18 تموز، ليسأل ما إذا كان يستطيع أن يقابله مع صديق أو اثنين. فاقترح سيلكيرك وقت الظهيرة في اليوم التالي. قال بوثيتشيري: إن الأمر ملح وإنه يود أن يرى المفوض بأسرع وقت ممكن. ودعاهم سيلكيرك «على مضض إلى شرب الشاي» في الساعة الرابعة بعد الظهر. قال سيلكيرك: إن جوهر ما طلبوه منه كان:

«هل كان الدستور المكتوب من أجل المصلحة الخاصة للسيد لي كيوان يو أم أنه كان دستوراً حراً؟. قلت ببساطة مايلي: إنه دستور حر، التزموا به بدون أعمال عنف، هل تفهمون؟ كان ذلك خلاصة الأمر. حسناً، ذهبوا وقمت بإعلام لي كيوان يو، قبل المناقشة، أنني رأيتهم».

كنت مقتنعاً أنهم خدعوا. إذ لم يكن سيلكيرك سياسياً عديم الخبرة. وإنما كان يعرف معنى البرتوكول. فالنسبة لممثل رفيع المستوى لحكومة جلالتها في سنغافورة أن يستقبل ليم تشين سيونغ وفونغ شخصياً في غضون أزمة كان مستقبل الحكومة فيها في خطر ما كان ليتم إذا لم يكن الأمر مهماً.

فالموالون للشيوعيين كانوا يريدون تفسير ذلك إشارة إلى أن البريطانيين كانوا مستعدين لأن ينظروا في العمل مع ليم، المدان سابقاً الذي منع، بموجب دستور 1958، من المشاركة بالانتخابات. والأكثر من ذلك أن أيا من الأربعة الذين قابلو سيلكيرك لم يكن من أعضاء «الجمعية التشريعية» ولهذا لم يكن لديهم ما يبرر أية مناقشة حول تشكيل حكومة جديدة. ما كان بوسعي أن أقبل تفسير سيلكيرك بأنه قابلهم خارج نطاق الاستقبال الدبلوماسي، وأنه أعطاهم الجواب الصحيح دستورياً. كنت مسروراً في سري لأنه قابلهم. فقد أصبحنا أحراراً الآن.

أعتقدت أنا وكينغ سوي أن العقل المدبر وراء هذه الحركة لم يكن سيلكيرك بل مستشاره المساعد فيليب مور، الذي يبلغ طوله ستة أقدام، ويتمتع بذهن وقاد. كان طويلاً ممشوق القوام، ذا وجه ودود وعينين ضاحكتين. كان هناك شيء ما يجذب إليه. كان بريطانياً من طبقة متوسطة وقد درس في مدرسة عامة. عمل ملاحاً في قاذفة لانكاستير أثناء الحرب العالمية الثانية، وأسقط فوق ألمانيا في كانون الأول 1942، حيث بقي أسير حرب حتى عام 1945. بعد ذلك ذهب إلى أكسفورد.

كان مور وأعضاء البعثة البريطانية الآخرون يجدون صعوبة في التعرف على زعماء حزبنا بسبب القاعدة المتبعة لدينا وهي أن على الوزراء أن لا يجروا مقابلات غير رسمية. رأينا كيف خسر الوزيران مارشال وليم يوهوك مكانتهما لدى الجمهور لأنه اعتبرهما يتوسلان اللقاءات الاجتماعية. دار مور حول المشكلة بلعب الغولف مع كينغ سوي ومعي بعد كل اجتماع لمجلس الأمن الداخلي على أمل إجراء مناقشات مطولة أثناء الشراب بعد انتهاء اللعب. بعد 34 سنة، إثر استقالته، أخبرني مور أنه في نهاية سنة واحدة استنتج أن غود كان على صواب

عندما كتب في تقريره بإنني لم أكن شيوعياً مستتراً بل كنت معادياً للشيوعية. كان تقرير غود حاسماً بالنسبة إلى رسم السياسة البريطانية لأن السير إيان ولاس، الذي كان الأمين العام المساعد الدائم في وزارة المستعمرات في لندن، كان مور يرسل إليه تقاريره بعد أن كان يتحدث معي قرابة ثلاث ساعات عام 1961. وقد وافق أيضا على تقديم غود.

وجدت في الأرشيف البريطاني الدعم الوثائقي لاستنتاجنا بأن البريطانيين كانوا يخططون لفصل الموالين للشيوعية من حزبنا، وذلك في تقرير يعود تاريخه إلى تشرين الأول 1961 مرفوع من فيليب مور إلى إيان سميث يشرح فيه مشكلة سنغافورة والاندماج:

«ما إن أصبح ليم تشين سيونغ مقتنعاً أن شعب سنغافورة سيؤيد الاندماج، حتى أصبحت أشك في أنه سيعود إلى السياسة الأصلية بعيدة المدى للحزب الشيوعي المالاوي ـ MCP ـ أي حكومة اشتراكية في كل المالايو. ففرصة الإطاحة بلي كيوان يو وإيجاد حكومة شيوعية بطريقة ملتوية في سنغافورة بدت في شهر تموز فرصة ذهبية بالنسبة إلى ليم تشين سيونغ لا يمكن رفضها».

«إن الفرصة الذهبية جداً» التي أشار إليها مور في تقريره كانت تصويتاً على الثقة الذي جرى في تموز. وكان تأكيد سيلكيرك إنه دستور حر التزموا به، ولا تلجأوا إلى الشغب هل تفهمون؟» هو على وجه الدقة السياسة نفسها التي اتبعها البريطانيون مع التونكو. ورأى مور في السياسة ذاتها المؤرخة في 18 تشرين الأول «كان علينا أن نشرح للاتحاد أنه إذا افترضنا أن باريسان سوسياليس قد تصرف بطريقة دستورية، فلا مجال لوضع زعمائهم في السجن أو الشك في دستور سنغافورة». بكلمة أخرى اتخذ البريطانيون موقفاً يفيد بأنه إذا كان الباريسان قد تصرفوا بطريقة دستورية فقد كانوا أحراراً تماماً في تسليم السلطة بموجب الدستور.

تلقى ليم تشين سيونغ ورفاقه دعوة الشاي من قبل القوميسيار البريطاني وما قاله لهم على أنه إشارة تفيد بأن البريطانيين راغبين في التعامل معهم، وأنهم لم يكونوا حائلاً دون استلامهم السلطة. ما قاله سيلكيرك كان يعبر عن الموقف الدستوري السليم ولكنهم فسروا مضامين قوله لصالحهم وقاموا بالانسحاب من حزبنا وحاولوا إبعاده من الحكومة.

حقق الموقف الدستوري الذي يبدو بسيطاً والذي اتخذه سيليكرك ثلاثة أهداف. أولها أنه كان على حكومة (PAP) أن تتخذ إجراء ضد ليم تشين سيونغ ورفاقه الشيوعيين و أن تواجه خطر إبعادها من قبلهم. وثانيها أنها وفرت لليم ورفاقه الفرصة لاستلام السلطة دستورياً. وثالثها أنها أظهرت للتونكو أن الإجراءات بالنسبة إلى ماليزيا ستكون مؤلمة إذا رفض أن يضم سنغافورة. وعندما أعلن "التونكو" خطته بالنسبة إلى سنغافورة وأراضي بورنيو رفضت الاستسلام إلى دعوة ليم تشين سيونغ لإلغاء «مجلس الأمن الداخلي» و «حريات ديمقراطية» أوفر، فقد كان «بلين» يريد أن يدمر حزبنا ويدمرني لأن الاندماج كان لا بد من الحيلولة دونه بشتى الوسائل. وهذا ما انعكس بعد سنوات من قبل كو يونغ الذي كان تابعاً إلى ليم في منظمة «الجبهة الشيوعية الموحدة» ـ CUF، وأكده ليم تشين سيونغ عام 1984 عندما أعلم «دائرة الأمن الداخلي» أنه قابل بلين ثلاث مرات بين أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات وأنه في أحد هذه اللقاءات أخبر الشيوعيين بأن ينشقوا عن حزبنا. ظن «بلين» على ما يبدو أننا سنخاف من قوة الموالين للشيوعيين، وكان هذا صحيحاً.

ظن أننا طبقة متوسطة رقيقة، بورجوازية، ناطقة بالإنكليزية، محبة للمسرات، نحتسي البيرة، ونلعب الغولف، ونعمل، وننام في غرفة مكيفة ونركب سيارات مكيفة. لم يرَ أن لديه ما يكفي من البرجوازيين والمثقفين الناطقين بالإنكليزية قد يقاومون الضرر الذي يريد أن يلحقه بنا.

24. انكشاف الشيوعيين

كان الضغط في الأسابيع التي تلت الانفصال عن الشيوعيين كثيفاً وكنا نصدر بيانات للصحافة كل يوم. ففي 30 تموز 1961، أعلن أعضاء الجمعية الثلاثة عشر المنفصلون تشكيل (باريسان سوسياليس) والذي يحمل أهداف حزبنا ذاتها: (ملايو ديمقراطية، مستقلة، اشتراكية غير شيوعية، تقيم اتحاداً مع سنغافورة). وفي الوقت ذاته كانت تجري معارك مشابهة بين النقابات. وفي 3 آب (أغسطس) أعلن أمين سجل الجمعيات حل (المجلس النقابي) بعد أن أشار وزير العمل أنه لم يعد من الممكن أن تتعايش النقابات غير الشيوعية والنقابات الموالية للشيوعيين في منظمة واحدة، حيث جمع ليم تشين سيونغ الزعماء الموالين له ـ وهم الآن ـ 82 لمناقشة تشكيل (اتحاد سنغافورة الجديد للنقابات) (SATU).

أردت أن أختبر موقفنا، لأرى ما إذا كنا في وضع يائس مثل وضع ليم يوهوك، عندما جمع شتات الشيوعيين في أعمال العنف في تشرين الأول 1956. وهكذا استقلت أنا وبانغ بون، وأحمد إبراهيم من مناصبنا الوزارية لنعود إلى منظمتنا الأساسية ونراقب ردود أفعال الناس على هذا التحول المفاجئ في الأحداث.

عدت إلى دائرتي الانتخابية في تانجونغ باجار، وقابلت وجهاء المنطقة من رجال ونساء. وتحدثت إلى الأعضاء البارزين والأعضاء العاديين، وزرت أصحاب المحلات، وفي المساء كنت أزورهم في بيوتهم أو في المقاهي لتبادل الأحاديث معهم. كما زرت أماكن تجمع كبيرة في دوائر انتخابية أخرى، بالإضافة إلى عدد من النقابات غير الشيوعية التي كنت على صلة بها. وجدت الزعماء والأعضاء غير مستائين. وأولئك الذين كانوا في السابق متكاتفين معي

ما يزالون وديين ومؤيدين. فمعظمهم كان في حيرة من الأمر، وبعضهم كان خائفاً. إذ لم يحاول أحد أن يتجنبني أو يظن أنني خائن. لم أكن في وضع خطير كما كان ليم يوهوك.

وفي غضون أيام نقل إلى يانغ بون وأحمد مشاعر مشابهة. لم تتحول المواقف ضدنا ولم تهتز الأرض من تحتنا ونشطاؤنا ما يزالون موالين لنا. لكن كثيراً من الجمهور قد تراجع بسبب التطورات الأخيرة والتخوف من المستقبل. لم أزر أية نقابة موالية للشيوعيين لأنها قد تكون معادية أو غاضبة.

بعد أن تحررت من شؤون الإدارة وتفاصيلها صار عندي من الوقت ما يجعلني أجس نبض الجمهور وأن أضع خطة للعمل في المرحلة القادمة.وتعلمت أنني عندما أجابه بالانتقادات الشديدة من الأفضل أن أتفاداها وأن أبقى هادئاً وأعيد التفكير في الأمور الجوهرية الأساسية. كان الحظ عاثراً عندما جرى التصويت على الثقة في 21 تموز. والشقاق مع الشيوعيين كان مكشوفاً، والمواجهة مستمرة.

لا يمكن أن نسمح لأنفسنا أن ننسى. فقد ألحق بنا ليم تشين سيونغ أقصى ما يستطيع من الضرر. فبعد أن جرى التصويت اكتشف أنصار الشيوعيين أنهم لا يستطيعون وضع يدهم على السلطة، فقاموا بسلسة من أعمال التخريب وإلحاق الأضرار بفروع حزبنا، وتعرض 25 فرعاً من فروع حزبنا لأعمال السلب والنهب والتخريب. ولكننا الآن نملك كادراً قوياً من الأعضاء بحيثلا يستطيعون السيطرة على الحزب. وقمت مع بانغ بون بجولة على فروع الحزب لإحياء المعنويات، لنبين أننا خلافاً لحزب العمل لا نرتكب مثل هذه الأعمال. واستطعنا استعادة بعض المسروقات. وعمل تشان تشي سيونغ بطل الكاراتيه درعاً لنا. كان لا يخشى التهديد وولاؤه وشجاعته سجل تقدير لدينا. وفي الأوساط النقابية عمل ليم تشين سيونغ وأتباعه الصغار كل ما في وسعهم لإثارة الاضطرابات وخلق حالة من القلق والغضب، مُقدمةً لعمل جماعي واسع النطاق، من خلال استخدام النشطاء من ذوي الثقافة الصينية ممن زرعوا في عقولهم الولاء للشيوعية. وكان

علينا أن نواجه هذه التحركات من خلال نشاطاتنا في الأوساط الصينية نفسها. وحشدنا بدورنا رجالنا والموالين لنا. ولكننا لم نجاريهم في أعمال التخريب والنهب بل حرضنا السلطة والنقابات على قمع هذه الأعمال الجائرة وكان لابد من الاستعانة بالقوات المسلحة في سنغافورة لفرض سلطة النظام والقانون.

كان كيني متخوفاً من عرض فونغ للقوة، ومع أنني طردت فونغ بوصفه سكرتيراً سياسياً له، كان كيني خائفاً من اتخاذ إجراء ضده وضد نقاباته و«فوج الأعمال». لم يكن كيني يخاف من مواجهة البريطانيين، بل كان يخشى من مواجهة الشيوعيين . ناقشت المسألة مع تشين تشي، وكينغ سوي، وراجا، ويانغ بون ووجدنا أننا بحاجة إلى وزير قوي يتعامل مع الشيوعيين. أجريت مبادلة مابين وظيفتي كيني وأحمد إبراهيم. فذهب كيني إلى وزارة الصحة حيث الأمور أهدأ، وانتقل أحمد من وزارة الصحة إلى وزارة العمل، حيث سرعان ما أظهر أنه لا يخاف. فقد ألغى تسجيل «المجلس النقابي» واتخذ إجراءات ضد العاملين البارزين الموالين للشيوعية في «فرقة الأعمال».

وقد أثار هذا ثورة. ففي شهر تشرين الثاني قام مناضلون من «فرقة الأعمال» بالاعتراض على تشكيل نقابة، وأحاط 150 منهم بمكتب رئيس المعسكر. وقد قدموا إلى المدير سلسلة من المطالب تتضمن إبعاد مكتب الرئاسة، وفي 24 تشرين الثاني أشعلوا النار في دراجة ودراجتين آخرين ممن اعتبروهما من أنصار حزبنا. اتهمنا 7 أعضاء بالتسبب بإلحاق الأذى. ثم شكلوا لجنة عمل وعقدوا اجتماعات احتجاج وألحقوا الأذى بمراكز مراقبة فرق العمل، وفي شهر كانون الأول، بعد طرد ثلاثة من زعمائهم تحصن 180 منهم في معسكر «بايالیبار». حيث كانوا مجموعة شبه عسكرية لها نظام متماسك ويمكن أن تكون مخربة إذا ما ثارت، لذا قررنا أن نرسل قوات عسكرية سنغافورية، كان لديها كتيبتان فقط كي تستولي على المعسكر وتفرض النظام والقانون.

كنت أريدهم أن يتجنبوا أي إطلاق للنار أو القيام بعمل عنيف يمكن أن يسبب خسائر قد يستغلها الشيوعيون لكسب تعاطف شعبي. لذا طلبت من الضابط البريطاني المفوض بأن يظهر قوة سيطرة لا يجرؤ مثيرو الشغب على مقاومتها. قلت: لو كان لدينا قوات «غوركا» كي نرسلها لكنت واثقاً أنه لن يكون هناك استخفاف ولسوف تذوب «فرقة الأعمال». ولكنني لم أكن متأكداً ما إذا كان لديهم التقدير الايجابي لجنوده السنغافوريين. قال الضابط: بأنه لا توجد مشكلة، وأمر رجاله بالإحاطة بالمعسكر وهم يحملون الحراب. وبمجابهتهم بعرض القوة هذا تفرق أعضاء كتيبة الأربع مئة بدون إبداء معارضة وعندئذٍ قمنا بطردهم جميعاً.

شكلوا مرة ثانية لجنة عمل وطالبوا بلجنة تحقيق. ولكنها كانت محاولات ضعيفة لإثارة الفوضى بالمقارنة مع أعمال الشغب الشيوعية في عامي 1955 و1956. كان هناك عاملا ن يدعوانهم للتراجع: الأول أن الرأي العام يمكن أن يكون ضدهم إذا خططوا لاستخدام العنف دون أن يشعر الشعب أولاً بالغضب بسبب مظلمة ما مثل تهديد الثقافة الصينية، وثانيهما أن العنف يمكن أن يدفع الحكومة إلى اتخاذ إجراءات أمن ضدهم.

وعلى صعيد الجبهة الصناعية توقعت أن ينظم ليم تشين سيونغ قلاقل واسعة النطاق ويحذر في مؤتمر صحفي من أننا قد نواجه إعادة لأحداث 1955 – 1956. وفي عام 1961 كان هناك 116 إضراباً، 84 منها بعد انقسام حزبنا في 21 تموز، وخلال الخمسة عشر شهراً، من تموز 1961 حتى أيلول 1962 جرى 153 إضراباً، سجل لسنغافورة ما بعد الحرب.

قمت بزيارة إلى كوالا لامبور لإجراء مناقشة مع «التونكو» حول الاندماج، وعند عودتي فوجئت بعدة مجموعات من المتظاهرين. وقررت ألا نجابه هذه الأعمال الصغيرة حتى نهزم الشيوعيين في معركة الاندماج. وشعرت بالاطمئنان بعد أن التقيت مع أنصارنا بعد عدة أيام في دائرتي الانتخابية وفي مراكز

الجمعيات والنقابات. فلم يعد الشيوعيون يمسكون بنا من خناقنا. بل نحن أحرار الآن ونستطيع أن نعمل بتصميم وثقة لتعزيز مواقعنا دون الخشية من وقع انقسام في صفوفنا. فقد أبعد ليم تشين سيونغ وأنصاره من الشيوعيين وعزلوا. كان لتنظيمهم القدرة على إلحاق أذى كبير بنا من خلال نقاباتهم القوية ومن خلال الطلاب الصينيين، ولكنهم إذا تجاوزوا حداً معيناً فإن ممثلي البريطانيين والمالاويين في «مجلس الأمن الداخلي» سوف يدفعونا إلى القضاء على منظماتهم البارزة واعتقالهم.

لم أكن ميالاً إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات قبل الاندماج. بل كنت أريد أن يقوم «التونكو» بهذه المهمة بعد أن نصبح جزءاً من «الاتحاد». ولكن «الفرع الخاص» كان يفضل العمل على الفور. وعندما اجتمع «مجلس الأمن الداخلي» في «مرتفعات كاميرون» في شهر آب (أغسطس) افتتح سيلكيرك النقاش بدعوتي إلى إبداء رأيي حول (رغبة الصينيين في المقاومة)، وهي ورقة قدمت من قبل المختصين في «الفرع الخاص» تؤكد على الحاجة إلى اعتقال القادة في وسط التنظيم الشيوعي. كان لدي وجهة نظر مختلفة. كنت أريد أن نجبر الشيوعيين على شرح التزامهم الأخير بالاندماج كي نهزمهم في نقاش مفتوح وهو ما كنت واثقاً منه. فقد كنت أرى أن الاعتبارات السياسية، أكثر من الاعتبارات الأمنية، هي التي تقرر أي جانب سيكسب المعركة.

والفائز سيحظى بكل شيء. فالناطقون بالصينية في سنغافورة، كشأن الناطقين بالصينية في كل مكان في جنوب شرق آسيا يَفضلون تقليدياً. أن يقفوا جانباً حتى يروا بوضوح في أي اتجاه تجري الرياح. ففي الوقت الحاضر ليس لديهم ثقة بنجاح حزبنا بدون الشيوعيين. لذا فهم يفضلون حتى حكومة يعرفون أنها تناور الشيوعيين، إذا كان الشيوعيون سينتصرون على المدى البعيد. وفي رأيهم أنهم سوف ينتصرون. لأنهم كانوا يرون أن العملاء السياسيين للصين الناهضة المستعيدة لنشاطها، سوف يصل نفوذها إلى سنغافورة في غضون عشر سنوات.

سيلكيرك يناولني مضرباً في ملعب الغولف في «مرتفعات كاميرون» عام 1961. وبيننا وقف داتو عبد الرحمن، الوزير المالاوي، وشقيقه وزير الداخلية المالاوي د.إسماعيل. أما غوه كينغ سوي فقد أعطى ظهره لآلة التصوير.

ناقشت القضية مع أربعة من العاملين في حقل التربية المتطوعين بالعمل مع «الفرع الخاص». كانوا يشعرون الآن أن المستقبل يدعو للقلق أنه محفوفاً بعدم الاستقرار، وأن أي تحول في مجرى الأحداث قد يزيد من مخاطر الوضع ويجعلهم في الجانب الخاطئ. كما رفضوا التعيينات. أكدت أن البريطانيين أنفسهم هم الذين خلقوا هذا الوضع. فكلما ازداد سيلكيريك وبعثته البريطانية تودداً إلى الشيوعيين ومؤيدي المليونير الصيني الشوفيني، تان لارك سي، الذي ينتمي إليهم ازداد الناطقون بالصينية اقتناعاً بأن هذا يعني أنه قد يسمح للشيوعيين باستلام السلطة.

كان هناك تحول ملحوظ في أكبر صحيفتين صينيتين في سنغافورة، فقد غطت وفاة تان كاه كي وجنازته صفحتين في جريدة «نانيا نغ سيانغ بو». وإذا كانت اللجنة البريطانية قد أخطأت الحساب، فسيكون لدينا حكومة جبهة شيوعية في غضون ستة أشهر أو أقل. وسيصبح البريطانيون قادرين فيما بعد على معالجة الوضع ببنادقهم ولكن حتى ذلك الحين تكون إرادة الناطقين بالصينية على مواجهة الشيوعيين قد تبخرت. لهذا كانت تحتاج القاعدة الصينية الجماهيرية إلى مرتكز مالاوي ملح.

رد سيلكيرك على هذا بسرعة: أنه بموجب الدستور يقع على عاتق حكومة سنغافورة أن تحكم، ولكن الحكومة عملت على تحويل مسؤولية الأمن الداخلي إلى «مجلس الأمن الداخلي». وكان ردي عليه أن الدستور قد أوضح بحكمة أن على البريطانيين المناطة بهم المسؤولية الأخيرة أن يستخدموا السلاح. تلك المناقشات كانت تلخص الأزمة التي تواجهها الحكومات الثلاثة. كل واحدة منها تريد أن تلقي بالعبء على الأخرى. وكان كل من ممثلي بريطانيا والملايو يريدون من حكومة سنغافورة أن تتخذ إجراءات ضد الشيوعيين، ولكن تلك الحكومة كانت مقتنعة أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك دون إلحاق ضرر كبير بشعبيتها لدى جمهور الناطقين بالصينية. وما كان مهماً الآن أن نبين أن الشيوعيين ليسوا سادة

المستقبل في سنغافورة. وعندئذٍ فقط يمكن طرح الاندماج على التصويت. وقد استخلصت أن هذا أمر جوهري للغاية، يربط سنغافورة مع ماليزيا بدون أن يسبب ذلك أي ضرر، وحتى لا يكون ذلك برهاناً على أننا بعنا أنفسنا للحكومة التي يسيطر عليها المالاويون في كوالا لامبور.

فضلت الاستفتاء على انتخابات عامة، لا تقرر نتيجتها مسألة الاندماج فقط. ولكنه من أجل كسب الأكثرية لماليزيا، إذ كنت أريد من الناطقين بالصينية الحياديين أن يعرفوا أننا نحن ـ وليس الشيوعيون ـ الجانب الرابح. لا يمكن أن نجعلهم يعتقدون بوجود فرصة للخسارة، وإلا فإن كثيراً منهم سيصوتون ضد الاندماج أو يمتنعون عن التصويت. من جهة ثانية إذا استطعنا إقناع الناس بأن الاندماج أمر حتمي، وأن الشيوعيين لا يملكون الغالبية لإحباط ذلك، فسوف يستنتج الناس أن من يؤيدون الشيوعيين سيخاطرون بالتعرض إلى المعاقبة من قبل الحكومة الاتحادية. لذلك كنت أريد أن يشعر الناس أن المد قوي جداً وضخم جداً بحيث لا يستطيع الشيوعيين ولا أي طرف آخر الوقوف في وجهه. ومن المؤكد أننا إذا استطعنا إيصال هذه الرسالة فإن زعماء الناطقين بالصينية في غرف التجارة، والاتحاد الثقافي والمدارس لن يسيروا مع ليم تشين سيونغ، فهم في أسوأ الحالات سيبقون على الحياد، وفي أحسن الحالات سيؤيدون الاندماج بهدوء.

والطريقة المؤكدة لتوليد هذا الإحساس بحتمية ماليزيا، هي أن نجعل الناس يرون أن ليم تشين سيونغ، وفونغ، والكوادر الموالية للشيوعيين نفسها تخوض معركة خاسرة، وأن من الأفضل عدم الانضمام إليهم. ولتعزيز هذا الانطباع رأيت من الضروري اطلاع كل فرد على الصورة الكبيرة على خلفية تشكيل حزبنا وحزب الشيوعيين جبهة متحدة، ولماذا خرق ليم تشين سيونغ وفونغ تعهدهما بالقتال من أجل الاستقلال من خلال الاندماج مع المالايو، ولماذا ينبغي أن يخسر الشيوعيون؟ ومن أجل التفكير في كل هذا كنت بحاجة إلى السكينة والهدوء،

وهما لا يتحققان في سنغافورة. في الحادي عشر من آب (أغسطس) غادرت ليلاً بالقطار متجهاً إلى كوالا لامبور، ثم تابعت في السيارة إلى «كلانغ لودج»، وهو منزل ريفي للضيافة تابع لحكومة سنغافورة في منطقة كاميرون الجبلية على ارتفاع خمسة آلاف قدم عن سطح البحر، وأخذت معي زوجتي تشو وأولادنا الثلاثة. كما أخذت معي مساعدي الشخصي تيو يك كوي، لأنني كنت أريد أن أملي عليه مسودة سلسلة من الخطب تتراوح في طولها مابين 20 ـ 30 دقيقة لأسلمها إلى إذاعة سنغافورة لأروي للشعب القصة بكاملها.

كانت منطقة الكاميرون باردة وهادئة ونائية، وبعيدة عن أجزاء سنغافورة السياسية الحارة. في ذلك الوقت لم تكن هناك آلات فاكس، ولا هواتف مباشرة فضلاً على أن الخط الهاتفي لم يكن نقي الصوت. وأعطيت تعليمات بألا يزعجني أحد إلا لحدث بالغ الضرورة. وهكذا بقيت طوال قرابة أسبوعين في سكينة وهدوء. وخلال تلك الفترة أنجزت ثماني أحاديث، وكان علي أن أنجز الأربعة الباقية في سنغافورة، حيث سيتم تسجيل الأحاديث الأولى. وطوال فترة شهر بدءاً من 13 أيلول وحتى 9 تشرين الأول (أكتوبر) كنت أذيع ثلاث أحاديث في الأسبوع، بثلاث لغات في كل مرة، اثنان منها باللغة المالاوية ولغة الماندارين. وأنا استخدم عادة اللغة العامية في حياتي العملية كانت تجربة مرهقة أتعبتني جسدياً، حتى أنني سقطت على الأرض في إحدى المرات بسبب الإرهاق الشديد.

في تلك الأحاديث التي وصلت إلى 12 حديثاً أو حلقة، لخصت خلفية جبهتنا المتحدة مع الشيوعيين منذ عام 1954 عندما تأسس حزبنا ـ حزب العمل الشعبي ـ وماذا حدث منذ ذلك حدث الانفصال ولماذا وقع الانفصال، وصولاً إلى الصراع الراهن حول الاندماج. وأردت أن استبعد أي شك بأن ما أقوله هو بمثابة حملة ضد الشيوعيين أو تخريب. فقد وصفت الشيوعيين بالقوة والشجاعة وصدقية قناعاتهم. وشرحت للمستمعين في أحد أحاديثي الإذاعية مايلي:

«تجاوزنا الفجوة وصولاً إلى عالم الثقافة الصينية، فهو عالم حافل بالحيوية والدينامية والثورة، عالم كان يعمل فيه الشيوعيون طوال السنوات الثلاثين الماضية بنجاح كبير... نحن معشر الثوريين الناطقين بالإنكليزية. تأخرنا في محاولة الضخ من بئر النفط نفسه. كنا في نظر الشيوعيين نسرح في مناطقهم الخاصة بهم. في هذا العالم تعرفنا على ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سوان. اللذين انضما إلينا في الحزب. وفي عام 1955 دخلنا الانتخابات. ومع وصولنا نشطت المنظمات الشيوعية الخفية في النقابات والاتحادات الثقافية.

إنه عمل غريب في هذا العالم. فعندما تقابل زعيماً نقابياً عليك أن تقرر بسرعة في أي جانب هو وما إذا كان شيوعياً أم لا؟. إذ تستطيع أن تكتشف من خلال اللغة التي يستخدمها وسلوكه ما إذا كان ينتمي إلى الدائرة العميقة التي تتخذ القرارات... تعرفت على عشرات منهم. لم يكونوا من المحتالين والانتهازيين... بل كثيرون منهم مستعدون لدفع الثمن من أجل قضيتهم الشيوعية على حساب تضحيتهم وحريتهم الشخصية. يعرفون أنهم يخاطرون بأنفسهم إذا ما كشف أمرهم واعتقلوا. وفي النهاية كثيراً منهم دخلوا السجون في انتفاضات عام 1956 و1957. تعودت أن أراهم هناك يناقشون الاستئناف. كثيرون منهم أبعدوا إلى الصين. وبعضهم كان من أصدقائي الشخصيين.كانوا يعتقدون أنني ينبغي أن أنضم إليهم، وأنني في النهاية سأقر لزاماً بأن ما يدعونه بالنظام الديمقراطي «البرجوازي» لن يفرز مجتمعاً عادلاً ومتساوياً وأنني سأقر بأنهم كانوا على صواب».

«من ناحية أخرى كنت امضي ساعات أتجادل مع بعضهم محاولاً أن اثبت لهم أنه مهما حدث في الصين أو روسيا فنحن نعيش في المالايو، وبعيداً عن الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية، إذا كنا نريد مجتمعاً أكثر

الكشف عن الشيوعيين في 12 محطة إذاعية خفية كل واحدة منها تذيع باللغة الماندرين والمالايو، 1961

عدلاً ومساواة في المالايو، علينا أن نتخذ بعض القرارات الأساسية، مثل أن نكون مالاويين، نجمع الصينيين والهنود والآخرين مع المالاويين. ونبني وحدة قومية وولاء وطنياً. ونجمع مابين العروق كافة من خلال لغة قومية واحدة».

وشرحت لماذا المالايو وسنغافورة لا يتفصلان:

وكل واحد يعرف أن الاتحاد مهم لسنغافورة. إنها الأرض التي تنتج المطاط والقصدير اللذين يُشغلا اقتصادنا. إنه الأساس الذي جعل سنغافورة العاصمة. وبدون هذه القاعدة الاقتصادية لا تحيا سنغافورة. وبدون اندماج، وإعادة توحيد حكومتينا وتكامل اقتصادنا فإن اقتصادنا سيسوء ببطء واستمرارية. وستسوء حياتكم المعيشية. وبدلاً من وجود تنمية اقتصادية واحدة للمالايو، سيكون هناك تنميتان، فالاتحاد سيدفع سنغافورة إلى التوسع الرأسمالي الصناعي وفي هذا التنافس سيعاني كلاهما».

في حديثي الإذاعي الأخير أعدت التأكيد على هذه النقطة: «حيث انه لا يوجد قحط في جوهور ونقص في المياه في سنغافورة في الأشهر الثلاثة الأخيرة، فربما يغير الشيوعيين خططهم... نحو استقلال سنغافورة وحدها. ولكن الطبيعة ذكرتهم بالحماقة الكاملة لمثل هذا التحرك». لقد كانت سنة جافة بشكل استثنائي، فأمطار قليلة مع انعدام الأمطار كلياً منذ حزيران . وفي نهاية آب انخفض ضغط الماء بشكل مفاجئ مسبباً لكثير من المصانع الإغلاقَ مؤقتاً والتي ستؤثر بشكل سيء على الفنادق الكبيرة، وكانت خزاناتنا الثلاثة الكبيرة خالية تقريباً. فحدد وقت توفر المياه بست ساعات في اليوم. لم يكن ثمة حاجة لتذكير الناس أن سنغافورة اضطرت إلى الاستسلام عام 1942 لأن اليابانيين قد وضعوا أيديهم على الخزانات في جوهور.وتقنين المياه عام 1961 ما كان ليلغي حتى نهاية كانون الثاني من العام التالي. كانت العوامل تتجمع من أجل إقناع الناس بأن الاندماج هو الحل العقلاني لمشكلات سنغافورة.

لم يكن ثمة تلفزة في سنغافورة في ذلك الوقت. وقد وصلت تلك الأحاديث الإذاعية إلى جمهور من المستمعين، وفي نهاية هذه الحلقات كنت مقتنعاً بأن معظم الناس قد تفهموا جيداً الحقيقة عن الماضي ـ الاقتتال الداخلي، والخيانات.. إلخ، كما تفهموا نظرتي الواقعية إلى المستقبل . استطعت أن أستقطب انتباههم. فأخبرتهم عن قصة تجربتهم مؤخراً ـ عن أعمال العنف والإضرابات، والمقاطعات، والتي ما تزال حية في أذهانهم. وفسرت لهم ما كانوا لا يعرفونه. كنت الساحر الذي يظهر على المسرح ليعرض ألعابه السحرية، ويلقي الضوء على أمور غامضة لم تكن بادية لهم. وقد كان لتلك الأحاديث تأثير عميق ولاسيما لدى الناطقين بالإنكليزية الذين كانت أحاديثي معهم بمثابة كشف عن حقائق لا يعرفونها. وكان بين المستمعين آنذاك شاب يدعى تشيونغ يب سينغ، أصبح فيما بعد رئيس تحرير «ستريتس تايمز». يتذكر فيقول:

«الإذاعات هي التي كانت تفتح عين الطالب في سنته الأخيرة في كمبريدج الذي يتعطش إلى عمل من أجل أن يريح والديه الفقيرين. كانت الأحاديث الإذاعية تصوغ المستقبل بشكل واضح. كنت أندهش من تأثير اللغة البسيطة الحية، والأكثر من ذلك، كنت أتأثر بالقصة الداخلية للصراع بين الجبهة المتحدة والاستعماريين البريطانيين.

«كانت الإذاعات تجربة لا سابق لها. كانت تتضمن تجارب حية، تجري عبر الأثير. «بلين» كان حقيقة. كل إذاعة تترك المستمع في شك ومتطلعاً باهتمام إلى الحلقة التالية. فالقاص المبدع كان يعمل. ولكن هذه المرة بدون خيال. كان هذا مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى أهالي سنغافورة».

وبعد وقت قصير من حديثي في 10 تشرين الأول دعا جون دوكلوس، رئيس قسم الإذاعة، ليم تشين سيونغ إلى أن ينضم إلى الاشتراك في واحد من 12 حلقة إذاعية أسوة بالحلقات التي قدمتها. كما دعي كثيرون ممن ورد ذكرهم في حلقاتي مثل فونغ سوي سيوان، وسيدني وودهول وجيمس بوتيشري ود.لي سيوه

كوه ود شينغ نام تشين. كتب دوكلوس: «أي بيان يدلي به رئيس الوزراء على الهواء ولا يكون صادقاً أو يضر بسمعة أي أحد يمكن أن يجابه بتحد». في اليوم التالي نشر ليم وودهول بياناً صحافياً يقولان فيه: إنهما يريدان وقتاً مماثلاً على الهواء لإذاعاتهما الاثنتي عشر. لم يكونا راغبين في أية مجابهة وجهاً لوجه، وبهذا جعلتهما في موقف دفاعي.

هؤلاء الناطقون بالصينية كانوا ملتزمين بالقضية الشيوعية وقد أظهروا كراهية وحقد ضدي عندما تناولت بالحديث نقابتهم أو افتراضاتهم الاجتماعية، حتى رجال الصحافة الصينيين الذين كانوا إلى جانبهم كانوا متضايقين من تغطية مؤتمري الصحفي. فقد كشفت شخصياتهم وأساليبهم ومقاصدهم الخائنة واعتبرت ذلك دليلاً على فعالية كشفي لهم.

أما التقدير الرفيع فقد جاءني من جيمس بوتشيري. إذ جاء لمقابلتي في مكتبي في «سيتي هول». بعد أن نشرت الحلقات الإذاعية في كتيب. قال: إنني كنت متألقاً وطلب مني نسخة من الكتيب وسألته ما إذا كان مستعداً لأن يشارك في مقابلة إذاعية معي؟. نظر إلي وحك رأسه وقال: بعد أن اكتسحت الساحة لن يكون لدي فرصة.

وأقر ضمناً أنني كشفت أمر بلين Plen والشيوعيين وأغرقتهم. كنت راضياً لأنني نسفت قناعة الناس بفرص الشيوعيين، وشعرت بثقة بأننا نستطيع أن نحشرهم في زاوية وأن نهيئ الأرضية لجولة تالية ضدهم، ويفضل أن يكون ذلك بعد الاندماج. إذ لم تعد الأمور ساكنة باتجاه الاندماج بثبات بعد. ففي مؤتمر، (هيئة الكومونولث البرلمانية) الذي انعقد في سنغافورة بحضور ممثلين عن ساوراك، وبروناي وبروني الشمالية والملايو، انتهى ببيان نشر في 24 تموز أكد فيه جميع المشاركين على (ضرورة وحتمية ولايات ماليزيا المتحدة). ولما كان الشكل النهائي لهذه الوحدة يتطلب مزيداً من المناقشة، وافق على إنشاء «اللجنة الاستشارية لتضامن ماليزيا» ليضمن استمرار الزخم نحو تحقيق هذا الهدف.

وبعد عشرة أيام أعلنت حكومة الملايو وسنغافورة، بعد اجتماع انعقد في كوالا لامبور، وحضره كينغ سوي بوصفه وزيراً للمالية والذي سيسعى لطلب مساعدة الأمم المتحدة لدراسة كيفية إقامة سوق مشتركة.

وفي آب عقدت أنا وكينغ سوي مؤتمراً لمدة ثلاث ساعات مع التونكو ورزاق لوضع بنود الاندماج. وحضر الاجتماع غزالي بن شفيع الأمين العام الدائم لوزارة الشؤون الخارجية، وكان يحضر بصفته المسؤول عن تفاصيل الاندماج.

في الشهر التالي أمضيت ثلاثة أيام في كوالا لامبور مع التونكو لمناقشة التفاصيل. وفي عودتي إلى سنغافورة في منتصف شهر أيلول عقدت مؤتمراً صحفياً أعلنت فيه أن الاندماج في مراحل دراسته الأخيرة وأن التطورات الأخيرة جعلته في موقع الصدارة، وسيكون شهر حزيران 1963 هو الوعد المفترض». وأوضحت على الصعيد المالي أنه بموجب دستور الاتحاد، كل دولة تفوض السلطة فيما يتعلق بالجمارك وفرض الضرائب إلى الحكومة المركزية، ولكن لما كانت سنغافورة تسيطر على التعليم والعمل والصحة والخدمات الاجتماعية، فإننا سنتلقى حصة أكبر من الاعتمادات لإنفاقها على هذه المسؤوليات. وكان لا بد من تعديل عدد من ممثلينا في البرلمان الاتحادي «وإلا سنكون ممثلين لأنفسنا مرتين». طلب تشين تشي من زعماء أحزاب المعارضة في «الجمعية» أن يحددوا موقفهم من نقطتين أساسيتين جاءتا في الاتفاقية أساساً (لاسيما الدفاع والشؤون الخارجية والأمن) فهذه يجب أن تبقى في يد الحكومة الاتحادية في كوالا لامبور، في حين تبقى التربية وسياسات العمل في يد حكومة سنغافورة. وفي 29 آب، في اليوم الذي نشرت فيه الرسائل في الصحف، أعلن د.لي سيوي تشو في بيان موقع أن 13عضواً في الجمعية سيوافقون على:

1. الاندماج الكامل والناجز مع سنغافورة كاثنتي عشرة ولاية في الاتحاد

2. وفي المرحلة النهائية من الاندماج تضم سنغافورة إلى الاتحاد كونها وحدة ذات استقلال ذاتي. وفي الاندماج سيسعى الحزب إلى دخول

سنغافورة فوراً في الاتحاد باعتبارها دولة أساسية، مع مواطنة مالاوية كاملة لمواطني سنغافورة، وتمثيل نسبي في البرلمان، وإجراء انتخابات عامة في سنغافورة قبل الاندماج. وفي الاتحاد الكونفدرالي ستسعى إلى استقلال ذاتي كامل لسنغافورة في الشؤون الداخلية، بما في ذلك الأمن، أما الشؤون الخارجية والدفاع ففي أيدي الحكومة الاتحادية.

الباريسان صادق على اقتراح جيمس بوثتشيري بأن يوافقوا على الاندماج الكامل اعتقاداً منه بأن التونكو لن يوافق عليه. كنت أنا وكينغ سوي، وراجا، وتشين تشي وبانغ بون فرحين. التونكو والباريسان فلم يرفضا الاندماج بل، كانوا مطالبين باندماج أوسع وأوثق . وكان السؤال الرئيسي في إطار الاستفتاء أي نوع من الاندماج كان الشعب يريده؟.

25. التحرك نحو الاندماج

ألزمنا أنفسنا بأن نجري استفتاء في شهر أيلول حول الاندماج مع ماليزيا. فالاكتفاء بالمصادقة على الاندماج بالأكثرية في «الجمعية التشريعية» مسألة لم تكن مطرحة، إذ يعتقد الناس أننا بعناهم، وسواء أكانت الشروط مناسبة أم لا. يجب أن يطلعوا على الحقائق، ونشرح لهم البدائل، ثم يختارون بأنفسهم. وفوق هذا فإن «التونكو» لن يثق بنا.

والأمر الآخر، ينبغي أن يبقى حزبنا ـ حزب العمل الشعبي ـ بوصفه الحكومة التي ستحقق هذا. من هنا ثمة حاجة ماسة للحصول على الأغلبية في البرلمان. ومع أن الأغلبية كانت ثمة 26 فقط مقابل 25، فقد كنت أعتقد أنه عندما يجد الجد فإن غير الشيوعيين في المعارضة عدا مارشال وربما أونغ إينغ غوان وتابعاه، لن يصوتوا للباريسان. وعندما أوضحت خلفية النزاع الحالي في أحاديث إذاعية كنت في وضع أفضل لطرح آرائي.

كان علينا الآن أن نضغط على الشيوعيين وأن لا ندعهم يتملصون أو يطالبون ثانية بسنغافورة مستقلة. ولكنهم تملصوا، وراحوا يراوغون لبضعة أسابيع، مستخدمين أسلوب التأخير وحث الناس على التركيز أولاً على النضال ضد الاستعمار. وفي مسيرة حاشدة جرت في 13 أب وضمت قرابة 10 آلاف شخص، أعلن ليم تشين سيونغ أن الاستعمار كان العقبة الكبرى أمام اندماج سنغافورة و«الاتحاد». لقد كانت بريطانيا هي التي قسمت الملايو إلى كيانين منفصلين.. وأضاف: (إذا كان الاندماج يعني إعادة الوحدة سنكون سعداء بتأييده). وقد صفق الكثيرون لليم عند هذا المقطع عندما تكلم بالملاوية ولغة الهوكين. ولكنني لم أكن متأكداً كثيراً أن مستمعيه كانوا يؤيدون ذلك الجزء من الخطبة. فإعادة الوحدة فعلياً أو غير ذلك، ستضعف أغلبيتهم الصينية وتجعلهم عرضة لتصرف أمني.

لم يكن «الباريسان» العامل الوحيد غير المؤكد. فالبريطانيون هم اللاعبون الأساسيون في هذه اللعبة ذلك أن كل شيء يعتمد على توصلهم إلى تفاهم مع التونكو، وما إذا كان سيلعب دوراً حاسماً في مستقبل سنغافورة، وما إذا كان هذا مجرد «اتحاد» أو اندماج كامل. وفي 18 تشرين الأول كتب فيليب مور في تقريره إلى إيان والاس في وزارة المستعمرات في بريطانيا يقول:

(كنا مستعدين بالطبع لبحث مشكلة سنغافورة مع الشيوعيين على المدى القصير، ولكن ينبغي أن نؤكد للتونكو أنه هو وحده،في المناخ الحالي للرأي العام الدولي،الذي يستطيع التعامل مع سنغافورة على المدى الطويل.. كما ينبغي أن نحرره من أوهامه بأن سنغافورة ستترك للبريطانيين بدون أساس محدد).

كنت أعتقد أننا بعد أن خسرنا هونغ ليم وأنسون في الانتخابات الفرعية، وعمل الشيوعيون على إزاحتنا من الحكم ينبغي أن يرى التونكو أنه ليس لديه خيار آخر إلا أن يضم سنغافورة إلى المالايو بشروط خاصة بحيث لا يغضب الأغلبية المالاوية الانتخابية في الاتحاد. فلا بد أنه يريد السيطرة على الأمن الداخلي، والدفاع، والخارجية. وكان التونكو قد أعلن في 27 تشرين الأول عام 1961 أنه في عام 1963 (من المحتمل جداً أن تمنح بريطانيا الاستقلال لسنغافورة. وتقيم علاقات دبلوماسية مع الدول التي نعارضها. فتنشأ سفارات لدول مثل الصين وروسيا ويوغوسلافيا وباقي أعضاء الكتلة الشيوعية. عندئذٍ سيصبح الشيوعيين على بابنا).

ولكن «التونكو» لديه ثمن لضم سنغافورة. فإلى وقت يعود إلى شهر آب كانت حكومته قد أعطت البريطانيين مهلة ستة أشهر للانسحاب من «مجلس الأمن الداخلي». واستنتج البريطانيون أنهم لما كانوا يريدون لحكومة المالايو أن تهيمن على سنغافورة لضبط الشيوعيين، فإن على التونكو أن يعمل على تكامل أراضي بورنيو وإدخالها في «الاتحاد» أولاً. تأكدت بالطبع من أنه ستكون ثمة مشكلة

توقيت. ومن خلال زياراتي لتلك المناطق لمتابعة دعاوى في محاكمها عرفت أن مستوى وعي سكانها السياسي ليس عالياً وقيادتها لم تتشكل بعد. وقد تركت الموضوع للبريطانيين كي يتصرفوا، وأظن أنهم حلوا هذه المسألة مع «التونكو».

في 16 تشرين الثاني غادر «التونكو» إلى لندن لإجراء مباحثات حول ماليزيا مع الحكومة البريطانية. كان سعيداً وقد أخبر الصحفيين أنه من الصواب الافتراض أن ماليزيا كانت «في الجيب» ـ أي أن مناطق بورينو الثلاثة وسنغافورة ستنضم جميعاً إلى الاتحاد. وسرعان ما أضاف بابتسامة، كما نقلت «ستريتس تايمز» مايلي:

«أود أن أكون أميناً تماماً . أريده أن يحصل في وقت واحد وإلا فإن شعب «الاتحاد» سيكون غاضباً. تعتبر سنغافورة في الاتحاد» ولداً مشاكساً... والمقترحات الدستورية ليست اندماجاً كاملاً. «فمن الأوضح أن نقول: إن صيغة قريبة جداً من الاتحاد».

وقد جعلت هذه الملاحظة عملي أكثر صعوبة.

وفي لندن بعد مباحثاته مع ماكميلان لمدة 80 دقيقة، كان سعيداً وهو يخبر الصحفيين: «ليس علينا الانتظار حتى عام 1963». وفي بيان مشترك في 22 تشرين الثاني، قالت الحكومتان البريطانية والمالاوية: «اطلع الوزراء برضى على نقاط الاتفاق الرئيسية التي جرى التفاوض عليها مؤخراً بين حكومتي المالايو وسنغافورة لضم الأخيرة إلى الاتحاد». لماذا التف «التونكو»؟ لقد سحره ماكميلان ووعده فعلاً بجزر بورنيو، على أن تكون موضع بحث من قبل لجنة تحقق رغبات الشعب. وفي سنغافورة عرضنا أمام «الجمعية التشريعية» النقاط الرئيسية لاتفاقية الاندماج:

«ستحصل سنغافورة على 15 مقعداً في الجمعية التشريعية للنواب وعلى مقعدين في مجلس الشيوخ». لن يخسر مواطنو سنغافورة البالغ عددهم 624 ألف مواطن حقوقهم بوصفهم مواطنين في الدولة، والتي

مقابلة زعماء من ساراواك وبورنيو الشمالية لمناقشة الخطة الماليزية في تشرين الأول 1961. من اليسار: يونغ نيوك لين، توه تشين تشي، أونغ كي هيو (الوزير فيما بعد في الحكومة الاتحادية، ساراواك)، أنا. دونالد ستيفنز (شمال بورنيو البريطانية، ثم رئيس الوزراء في صباح)، راجا راتنام وتيون مصطفى هارون (شمال بورنيو البريطانية وقد أصبح فيما بعد أيضاً وزيراً أول، صباح).

يتمتعون بجوازات السفر نفسها للاتحاد أيضاً. كما سيتمتعون بحقوق متساوية، والحماية ذاتها ونلقي على عاتقهم واجبات ومسؤوليات متكافئة. (وسيظل وضع ميناء سنغافورة الحر على حاله). وسيظل الاتجاه العام والإشراف على حكومة سنغافورة كما هما قائمان الآن، وتتألف من رئيس للوزراء ووزراء يعينون بمشورته... وستستمر (الجمعية التشريعية) في سنغافورة على أنها «جمعية ولاية»، ولكن لن يكون لها الحق في إصدار القوانين المتعلقة بالدفاع، والشؤون الخارجية، والأمن، والشؤون الاتحادية.

(سيكون لسنغافورة استقلال ذاتي في التربية وسياسات العمل وبصورة عامة ستحصل على مقاييس أوسع من صلاحيات الدولة الاحتياطية بالمقارنة مع الولايات الأخرى في الاتحاد). (ستحصل سنغافورة على عائدات كبيرة جداً من عائدات الدولة). (أما الوضع الخاص للمالاويين الذين يعتبرون مواطنين، فسيظل محفوظاً). كان من الطبيعي أن تثار عدة اعتراضات ومناقشات من جانب الأطراف الأخرى الداخلة في الاتحاد.

وفي 20 تشرين الثاني أوضح إبراهيم بأن «هذا المجلس يؤكد أن الهدف الأول لجميع الوطنيين الصادقين في المالايو هو تحقيق الوحدة بين هاتين المنطقتين في اندماج لسنغافورة مع اتحاد المالايو». كان الباريسان في مأزق. فقد وجدوا أن التحرك نحو ماليزيا يبدو غير قابل للتوقف لذا حاولوا تأخير الإجراءات بإضاعة الوقت. تحدث د.لي سيو مدة 7ساعات ونصف على مدى يومين. وبعد نصف الساعة الأول راح يتحدث بشكل غير مفهوم. فقد كان لديه فريق من الكتاب المأجورين في قاعة أعضاء المعارضة يتكلمون بحماقة عن أن أعضاء الجمعية من الباريسان كانوا يؤتى بهم إليه. وغالباً ما كان لا يستطيع حتى أن يقرأ ما يكتبونه له. تساءلنا عن المكسب الذي يمكنه الحصول عليه بإعاقة الإجراءات لمدة يوم أو اثنين إذا كنا لن نواجه أي موعد نهائي. وأخيراً طلبت أنا وتشين تشي ووزراء آخرون من رئيس الهيئة التشريعية، السير جورج أويهلرز، ما

إذا كان سيسمح للدكتور لي أن يكرر نفسه مراراً. ولكن أويهلرز كان ضعيفاً. كنا نخشى أن يزرع الشيوعيون فيه مثل هذا الخوف بحيث يتجاوز القواعد كافة من أجل أن يسيطرة الباريسان على المناقشات. وقررنا إذا كسبنا الانتخابات القادمة، فينبغي أن يكون لدينا رئيس للهيئة التشريعية أكثر شجاعة.

وهكذا استمر د.لي يثرثر حتى حجب كثيراً من النقاط المهمة. وكان من بين أهم هذه النقاط أن سنغافورة لن تحصل على تمثيل في المجلس البرلماني الاتحادي يتلاءم مع عدد أصوات ناخبيها. ينبغي أن تحصل سنغافورة على 25 ـ 30 مقعداً من أصل 100 مقعد كما قال. شرحت أنني طلبت 19مقعداً ولكن «التونكو» لم يرغب بمنح أكثر من 15مقعداً وهو الرقم المخصص للمناطق الريفية من كوالا لامبور ومالاقا.

لم تكن الصعوبة الرئيسية التي تواجهني هي في هذا أو في الاندماج الكامل الذي لم يكن شعب سنغافورة يريده. بل كانت الصعوبة مع مشكلة المواطنة. فقد وصف د.لي «الاتحاد» مثل اتخاذ ثلاث زوجات في بورنيو، في حين لن تكون الزوجة الرابعة، إلا عشيقة. وأولاد العشيقة سيعاملون على أنهم غير شيوعيين محرومين من حق المواطنة الاتحادية. سبب التشكيك بأن «القوميين الماليزيين» «قد يثيروا اضطراباً كبيراً» فوضى كبيرة وأعطى الباريسان مبرراً نموذجياً كي يكثفوا من حملتهم الرامية إلى إثارة الاضطراب والتي كانوا قد شرعوا بها من قبل. وكما شرحت في مؤتمر صحفي في 15 تشرين الأول، بأن المواطنين المولودين في سنغافورة سيصبحون بصورة آلية مواطنين اتحاديين في ظل اندماج كامل، فإن آخرين ـ يقدر تعدادهم بما يقارب 327 ألفاً منهم، أي أولئك المولودون في الصين، والهند كذلك ماليزيا ـ عليهم أولاً أن يحصلوا على مؤهلات الإقامة الاتحادية، وأن يجتازوا امتحان اللغة المالاوية قبل أن يصبحوا مواطنين اتحاديين كان الخلاف أنه بموجب اتفاقنا مع «التونكو» سيصبح جميع مواطني سنغافورة «مواطنين اتحاديين». كان ذلك أفضل «اتفاق خاص» حصلت عليه من «التونكو».

قام الشيوعيون بهجوم معاكس قوي رغم موقفهم الضعيف أساساً منطلقين من دعوتهم إلى اندماج كامل كي يؤكدوا على أن سكان سنغافورة سيصبحون من الدرجة الثانية. وعلى الرغم من أن كينغ سوي قد رد معترضاً على د.لي سي كوه حول ذلك مشيراً إلى أنهم سيكونون قادرين على التصويت لاختيار ممثليهم في البرلمان الاتحادي، وكذلك الانتخاب، فقد كان يخشى من تأثير هذه الدعاية في مؤيدينا.

بعد 13 يوماً من المداولات المملة والمكرورة جاء التصويت في 6 كانون الأول. وفيه 33 صوتاً مؤيداً ربما في ذلك (صوتان من UMNO وثلاثة من SPA وصوت مستقل واحد) مع غياب 18 صوتاً. واختار الباريسان أن يحجبوا أنفسهم بدلاً من التصويت ضد «رؤوس الاتفاقية» بعد أن ألزموا أنفسهم بالاندماج. وفي 24 كانون الثاني 1992 كانت النقلة الثانية المداولة من أجل تأييد الخطة المقترحة من «التونكو» مبدئياً من أجل تأسيس «اتحاد ماليزيا» الذي يضم 11مقعداً لمالايا ومقاعد سنغافورة وبورني، ومقاطعات ساراواك وبورنيو الشمالية . ولدى التصويت في 30 كانون الثاني جاءت النتيجة 35 بنعم (أصوات حزبنا والمنظمة الوطنية لاتحاد المالايو UMNO والفرع الخاص SPA) و13 صوتاً «بلا» (الباريسان) وامتناع ثلاثة عن التصويت وغياب ثلاثة. ولم يعارض أونغ إينغ غوان ومارشال. فقد كانا يريدان معارضة الاقتراح، ولكنهما خشيا أن يعاملا مثل الشيوعيين إذا ما انضمت ماليزيا واستلم «تونكو» السلطة لذا فقد امتنعا عن التصويت أو تخلفا كي يتجنبا اصطداماً مع «تونكو».

توقفت المداولات نفسها بسبب مقاطعة طلا ب المدارس المتوسطة الصينية للامتحانات. وفي 29 تشرين الثاني حالت ظروف دون التحاق لي كهون تشي، السكرتير البرلماني لوزارة التربية والحكومة من المجيء إلى «الجمعية التشريعية». وسرعان ما قدم راجا اقتراحاً إلى «المجلس» لدعوة الشرطة إلى التأكد من أن أولئك المسؤولين عن اعتراضه قد جرى التعامل معهم وفقاً للقانون. جرى

التصويت بنتيجة 43 مقابل 3 وقد أمر «الباريسان» «مفارز الطوارئ أن تتفرق بهدوء. كانت مشكلة الامتحانات عسيرة منذ حزيران، فعندما اقترح وزير التربية أن يكون نظام الامتحانات موحداً في المدارس الإنكليزية والمالاوية، والتاميل، وكان ذلك يعني تغييراً بالنسبة إلى الطلاب الصينيين. فبينما كانوا في الماضي يستطعونالإخفاق في امتحانات المرحلة المتوسطة ومع هذا يتابعون في المدرسة المتوسطة العليا، فأصبحنا نطلب منهم الآن أن يجتازوا شهادة المدرسة المتوسطة قبل الوصول إلى شهادة المدرسة العليا. عارض الموالون للشيوعيين النظام الجديد، وصعدوا الموقف كثيراً عندما قام 300 منهم بمحاصرة مراكز الامتحانات وشكلوا سلاسل بشرية للحيلولة دون أن يقدم الطلاب امتحاناتهم في 27-28 تشرين الثاني.

كان ذلك جانب من الاضطراب العام الذي سعى الشيوعيون إلى خلقه. كانوا يريدون أن يشارك طلاب المدارس الصينية في المعمعة كما فعلوا ضد ليم يوهوك. ولكننا رفضنا أن نستخدم الشرطة ضدهم للسيطرة على أعمالهم. بدلاً من ذلك أعلمنا آبائهم أنه إذا لم يحضر أبناؤهم الامتحانات فسوف يخسرون السنة بكاملها قبل أن يعودوا ثانية، وعرضنا حماية الشرطة لهم. وكانت النتيجة أن 60% حضروا الامتحانات. والتقطت الصحف، بما في ذلك الصحف الصينية، صور آباء وأبناء تحرسهم الشرطة التي كانت تدفع بالمشاغبين جانباً والذين غطوا نصف وجوههم بمناديل أشبه برجال العصابات، تجنباً لالتقاط «الفرع الخاص» صوراً لهم.

لم أسمح أبداً للشيوعيين أن يستغلوا اللغة الصينية والتعليم والثقافة الصينية، وبهذا حصلت على تأييد أولادي الذين تعلموا الصينية. قد ينتقدون خلفيتي البرجوازية بصفتي من الطبقة المتوسطة. ولكنهم ما كان يمكنهم أن يعاملوني مثل ليم يوهوك، أي كعدو دمر الثقافة الصينية.

خلافاً لمقر إقامة عبد الناصر، مع بوابات حديدية تفتح إلكترونياً وبدون صوت عند وصولنا. جئت ماليزيين، ولكنه لم يطلق هذا الوصف على مواطني سنغافورة.

وعندما سألني مود لينغ عن متاعبي مع التونكو، قلت له: التونكو يعتقد أنني ذكي، ولكنني لست نفسه كانت نسبة الحضور مائة بالمائة في 19 مدرسة من أصل 25 مدرسة صباحية. وقام 100 طالب بلصق الإعلانات على الجدران ولمبات الإنارة وإشارات السير، ولكن في الساعة الخامسة صباحاً توقفوا عن ذلك. لم يكونوا يخشون أن يراقبهم أحد أو يصورهم.

على الرغم من أن «الباريسان» كان يطوف المدينة كل يوم أحد فإن الأرض لم تهتز تحت أقدامنا.

26. التعرف على «التونكو»

عاد التونكو من رحلته إلى لندن سعيداً. فقد استطاع أن يوسع رقعة بلاده. وهو الآن سيضع يده على سنغافورة بشروط تمكنه من المحافظة على الأغلبية المالاوية ونظام سيطرة المالايو الذي أسسه «الاتحاد». وتجاوز مخاوفه الدفينة من استيعاب مزيد من الصينيين. في منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) أمضيت أربعة أيام في كوالا لامبور، حيث بقيت مع «التونكو» أربعة أيام في مقره الرسمي. كنت أتحدث معه مباشرة على انفراد بدون رسميين أو وزراء، أو أي فرد يسجل ملاحظات.وهذا ما جعل التونكو يشعر بالارتياح، لأنه غالباً ما يلجأ إلى المرونة عندما ينفذ أي اتفاق شرف. وبعد مناقشتنا أخبرت الصحافة أننا نود تشكيل دولة ماليزيا في شهر آب (أغسطس) عام 1962، بحيث يجري الاحتفال السنوي بهذه المناسبة في يوم ميمون . وكان رقم الحظ عنده هو الرقم 8، وهكذا اختير الشهر الثامن ـ آب ـ للإعلان عن قيام دولة مالايو المستقلة.

علمت فيما بعد من صديق قديم، تعود صداقتي معه إلى أيام ما قبل الحرب في كيمبريدج، وهو د .تشوا سين كاه، أنه كان يريدني أن أقيم في قصر الرئاسة لأنه كان يريد أن يعرفني عن كثب، ويعرف عاداتي ويفهم شخصيتي. وقد توصل إلى استنتاج بأنني (لست شخصاً سيئاً). فقد لعبت معه الغولف والبوكر، وشربنا الجعة وبعض أنواع الشراب الأخرى. واعتبرني شيوعياً غير خطير. والحق أنني رفيقاً وكنت دمثاً معه، كان لدي دائماً الكثير من الأفكار، وكل شيء على ما يرام. وترافقنا. وكان من بين مزاياي أنني أتحدث المالاوية، وكنت أشعر وكأنني في بيتي وأنا أتحدث إلى زوجته، بوان شريفه رودزياه، وهي امرأة عربية ـ مالاوية، يدعونها تحبباً باسم انجكوباه، وكانت أيضاً من ولاية «كيداه» وهي ولاية التونكو الأصلية. وكانت زوج تشو تتحدث المالاوية جيداً. وهذا ما أظهر له أننا مالاويين في الصميم ولسنا صينيين متعصبين.

التفاوض مع التونكو يحتاج إلى مزاج خاص. فلم يكن يحب الجلوس وجهاً لوجه بعد أن يقرأ الملفات التي لديه.كان يفضل أن يترك جميع التفاصيل المملة لنائبه رزاق ـ وهو رجل متمرس ودؤوب وشديد التدقيق في التفاصيل ـ ويتفرغ لاتخاذ القرارات الكبيرة، وإدارة مجرى الأحداث. وكنت في كل مرة أجابه طريقاً مسدوداً مع الرسميين المالاويين حول مسألة ما، ولا أجد الوزير المناسب أو رزاق لحلها، كنت أتجه إلى التونكو. وهذا يعني أن أحصل على كلمة مابين جلسات طويلة من الحديث المتقطع حول العالم، وفترات الطعام الذي كان يعده شخصياً في الغالب من اللحوم المشوية ـ كان يتمتع بالطبخ ويتقنه. وكان يأخذ فترة من النوم كنت خلالها أذهب لألعب الكرة منتظراً حتى يصحو. وعند الساعة 4.30 كنا نلعب الغولف، وأثناء اللعب أو قبل الغداء، عندما يكون مزاجه رائقاً، كنت أعرض المسألة عليه.

بهذه الطريقة كان كل موضوع يمكن أن يستغرق أربعة أيام من الطعام والشراب ولعب الغولف، والذهاب معه إلى حفلات العشاء أو الأعراس. وكنت أرافقه في كثير من المناسبات إلى (بينانغ) أو (إبوه) أو مرتفعات الكاميرون. منتظراً اللحظة المناسبة كي أعرض عليه ما أريد. كان مزاجه متزناً، ويظهر الهدوء والصفاء، ولكنه يستشار كثيراً عندما يشعر بالخطر. وأخبرني أنه لا يسمح لأحد أبداً أن يحاوره بخشونة أو يستحثه على اتخاذ قرار، لأنه إذا لم يكن مرتاحاً وهادئ الأعصاب قد يرتكب أخطاء فاحشة. ولذا فإنه عندما يشعر بالضغط يؤجل اتخاذ قراره . ولكنني كنت أعلم أنه ما إن يتخذ قراره فإنه لا يتراجع.

أما المفوضون رفيعو المستوى الذين كانوا يعملون في كوالا لامبور فقد كانوا يعرفون هذا، لاسيما مفوض أستراليا توم كريتشيلي، والمفوض البريطاني جيوفري توري. وكان التونكو يحب الربح أو بالأحرى لا يحب الخسارة. وهذا جانب من تربيته الملكية. ومع هذا كان هدفي الوصول إلى نقاط تفاهم وانسجام

بيني وبينه. وعندما خسرت ذات مرة مئتي دولاراً، بعد أن جاءني هاتف من سنغافورة قال: «كيوان يو اصرف انتباهك إلى اللعب. لا أود أن أربح منك، فعندما يكون ذهنك منصرفاً عن اللعب يمكن للعمل أن ينتظر إلى الغد». ضحكت متذكراً مباحثات لندن عام 1956 وكان لينوكس بويد يكتب جواباً على برقية فيما كان يصغي إلى مارشال. قلت: «تونكو عندما ذهبت لأرد على الهاتف كنت أعلم أن عرضك هو 15 دولاراً، تشككت في أن يكون لديك ثلاث ملوك، ولم يكن لدي أوراق كافية لمواجهتك، لذا كان علي أن ألقي أوراقي. في الحقيقة لم يكن يجامل. بل أراد أن يربح بعد أن أفعل أقصى ما في وسعي فقط. كان أصحابه يمزحون معه أثناء اللعب. وكان يعود إلى البيت وقد كسب بضعة مئات من الدولارات.

كان إنساناً رائعاً. كان أميراً يفهم معنى السلطة ويعرف كيف يستخدمها. لم يكن يحمل عصاً غليظة، ولكن كان لديه كثيرون يقومون عنه بالمهمة الخشنة فيما يتوجه هو إلى طريق آخر ويبدو لطيفاً كعادته . وإذا فقد الثقة بإنسان ما فهذا يعني نهاية علاقته به . ولكنه إذا ما وثق بك فلن يخيب ظنك ولسوف يجد دوماً ـ بتقليد ملكي ـ طريقة لمساعدتك،كما فعل مع ليم يوهوك . فعندما خرج هذا الأخير من الوزارة عينه «التونكو» مفوضاً سامياً في أستراليا، وعندما أساء التصرف هناك واضطر إلى الاستقالة، عينه «التونكو» مرة أخرى في عمل آخر، في منظمة إسلامية في جدة (وكان ليم قد تحول إلى الإسلام) . تلك كانت طريقته في مساعدة صديق إذا ما وقع في ضائقة.

ومن حسن الحظ أنه نظر إلى وضعي المحفوف بالمخاطر في سنغافورة بعين العطف. فلم تتوقف هجمات الشيوعيين علينا،وكان هناك الكثير من إضرابات العمل، ولكن لم يكن هناك أعمال عنف أو صدامات بين العمال والشرطة . وفي 11 كانون الثاني 1962، طرحت المعارضة في (ديوان راكيات) ،مجلس الممثلين في كوالا لامبور، سؤالاً محيراً على التونكو عما سيحدث بعد الاندماج، نظراً لأن زعماء النقابات في سنغافورة لا يحبون نظائرهم من الموالين. فأجاب التونكو أن

سنغافورة تشهد إضرابات أكثر في الشهر الواحد مما تشهده الملايو في ثلاثة شهور، ومع هذا فسيحاول أن يقلص العدد ويشيع مزيداً من الارتياح للناس هناك، وأضاف ضاحكاً:

(لا أعرف كيف سنحقق هذا، ولكن وزيرنا لشؤون الأمن الداخلي يقول: إنه سيفعل ذلك. والبلاد كلها معه). كان ذلك سيفاً ذا حدين يظهر للمتمردين في سنغافورة أن التونكو واثقاً أن الاندماج قادم وأنه بعد الاندماج سوف يتعامل مع الشيوعيين عن طريق إسماعيل، ومن جهة أخرى حرض هذا (الباريسان) على أفعال يائسة لإيقاف الاندماج. كانوا يعلقون آمالهم على أن يرفض الناخبون الناطقون بالصينية الاندماج في أية صورة، بالعمل على إثارة مخاوفهم من أن يصبحوا (مواطنين من الدرجة الثانية).

ولمواجهة هذه المسألة اقترح القادة التقليديون للجماعة الصينية (بما في ذلك أعضاء غرفة التجارة الصينية). أن أتحدث إلى أعضائهم. ووافقت على ذلك. وفي 13كانون الثاني التقيت ألف مندوب يمثلون 1400 اتحاد جمعية في (قاعة فكتوريا التذكارية). تولى رئاسة الجلسة رئيس (الغرفة الصينية للتجارة والصناعة) في سنغافورة، وهو تاجر مطاط ناجح في الحادية والخمسين من العمر يدعى كو تيك كين، وكان معظم زملائه باستثناء تان لارك سي، لديه شكوك تجاه الشيوعيين، فقد كانت له مصلحة اقتصادية في الملايو حيث يستورد المطاط، ولم يكن يريد مساندة الشيوعيين. وبعد أن عرفته جيداً، وجدته إنساناً حساساً عاقلاً شديد الاهتمام بمستقبل الجماعة الصينية في سنغافورة والتي كان يعتبر أن من واجبه أن يرعى مصالحها.

أمضيت ثلاث ساعات أجيب عن الأسئلة. كان الجمهور غير معاد. والغالبية كانت من رجال الأعمال. ولم يكن بوسع الشيوعيين أن يساندوا الاجتماع أو يسيطروا عليه. كانت أجوبتي عن بعض الأسئلة تثير ضحك الجمهور. وعندما

حولت الاجتماع نحو الحديث عن التطور التاريخي للجماعات الصينية في جنوب شرق آسيا وكيف لعبت الارتباطات القبلية دوراً أساسياً لصالح المهاجرين الصينيين، كانت استجابة الجمهور كبيرة وقوبلت بالتصفيق.

كما توقعت كان السؤال الأول يتعلق بالمواطنة. كان هذا أمراً طبيعياً. وبوصفي عضواً بارزاً في الغرفة، ذكّرت المستمعين أنهم قاتلوا بمشقة من أجل المواطنة في سنغافورة، وتعدد اللغات والمعاملة المتساوية لذوي الثقافات المختلفة. لذا كانوا يتطلعون إلى معرفة كيف سيؤثر هذا على الاندماج.قلت لهم: إذا سعونا إلى اندماج كامل كما اقترح «الباريسان»، فهناك 330 ألف مواطن سنغافوري سيخسرون جميع حقوق المواطنة. ولكن لام تيان،خصمي القديم في الانتخابات العامة سنة 1955، عاد مؤخراً ليشكك في بديلنا. لماذا لا يستطيع 600 ألف مواطن سنغافوري التمتع بالحقوق ذاتها بعد انضمام ماليزيا وفقاً للشروط التي اتفقنا عليها مع «التونكو»؟.

ذلك الخلاف كان مشكلتي، ولم يكن عملي أسهل عندما نشر اللقاء الثالث (للجنة تضامن ماليزيا الاستشارية) بياناً قبل عدة أيام يفيد أن الموقف الخاص للمالاويين في «الاتحاد» سيكون مساوياً لموقف الشعب الأصيل لمناطق بورنيو، وبذا سيصبحون بصورة آلية «مواطنين أصلاً» لماليزيا بحكم القانون. وهذا ما عزز الموقف الأعلى «للمواطنين» على «المقيمين» في سنغافورة.

عندما قابلت السيد جون مارتن، وهو معاون دائم آخر في «دائرة المستعمرات» مع إيان دالاس وفيليب مور في «سري تيماسك» في 16 كانون الثاني 1962 لمناقشة مسألة ماليزيا، كانوا يظنون أن الرأي العام في مناطق شمال بورنيو يعاكس الافتراضات الموثوقة «للجنة تضامن ماليزيا الاستشارية». كان مارتن ووالاس في بورنيو قد وجدوا شكوكاً في كل مكان. إذ كان سكان أعلى النهر من البسطاء ولا يعرفون إلا القليل عن المشكلة ويحتاجون بعض الوقت للتفكير فيها. أما الصينيون فكانوا غير واثقين لأنهم كانوا يعرفون أن سياسة الحكومة المالاوية

هي أن تبقيهم في مكانهم. وفي بروناي، كان «أزهري» زعيم «بارتاي راكيات». والتي تحظى بتأييد كبير في أوساط المالاويين الشباب، معارضاً بشدة للانضمام إلى ماليزيا، وكان يدعو إلى استقلال تام لمناطق بورنيو الثلاثة. أراد سلطان بروناي أن يعرف ما هي الفوائد التي ستعود عليه؟ وكان وما يحتاجه للتأكد من الحصول على شروط خاصة في مباحثات مباشرة مع الحكومة المالاوية.

قلت: إن هذه الشكوك ينبغي أن لا تؤخذ بكثير من الجدية. فزعماء مناطق بورنيو كانوا يحترمون السلطة. وهم ما إن يروا «تونكو» مصدراً وحيداً للسلطة في «الاتحاد» فسوف يكيفون أنفسهم مع ذلك. وما كان مهماً أن يتخذ البريطانيون موقفاً قوياً ويجعلهم يفهمون أن دعم بريطانيا لماليزيا دعم ثابت ونهائي.

استنتج مارتن أن شعب بورنيو سيوافق على الخطة مفترضاً أن «تونكو» كان من الحكمة بحيث يضمن لهم حماية معقولة، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت للاستعداد كي نضمن أن الإدارة لن تنهار بعد انتقال السيادة. أكدت أن علينا أن نحافظ على الزخم. كان «تونكو» يريد قيام ماليزيا في آب 1962. وكنت أريد أن يتم الاندماج بأسرع ما يمكن وبذا أضعف التهديد الشيوعي لدى عدد كبير من سكان ماليزيا. قلت لهم: يجب أن نسرع. «فالباريسان» قاموا بمناورة تكتيكية عندما أعلنوا أنهم مع الاندماج، وعندما يعرفون أنهم لن يكسبوا فإنهم قد يشنون حملة واسعة من الاضطرابات بدلاً من القبول بماليزيا، وبالتالي إزاحتهم من مركز الاهتمام. لا بل إنهم قد يلجأون إلى القتال.

لم تتناقص رغبة الباريسان في إثارة القلاقل لذا كنت تواقاً لتحريك الأمور. ولكنني بنفاذ صبري واختلاف مزاجي جعلت «التونكو» يغضب مني. لم أكن على درجة عالية من الحساسية كي أتأكد أنه ما إن قرر أن يضم سنغافورة إلى «الاتحاد» فإن موقفه مني سيتغير كثيراً. كان أمير بيت «كيداه» الملكي وبالتالي فالتسلسل في المراتب كان جزءاً من طبيعته. وفي الوقت الذي كانت فيه

سنغافورة خارج إطار سيطرته فقد كان يعاملني معاملة زعيم لبلد صديق مجاور، كزعيم أدنى يرغب في أن يجامله. ولكن الآن سأصبح جزءاً من «اتحاده». كان معتاداً على تقبل المجاملة ممن يحيطون به، ومن تابعيه المتواضعين والمخلصين له. كان ليم يوهوك واحداً منهم وكنت فظاً معه عندما قدم اقتراحاً إلى «الجمعية» في شهر آذار للتعبير عن قلقه الشديد بسبب تصاعد الشغب الصناعي في سنغافورة. وفي تبادل الكلام الذي أعقب ذلك. زجرته بقوة مشيراً إلى الخلافات بين موقفه في معالجته للنزاعات العمالية في عامي 1955 ـ 1956، والطريقة التي تعاملنا بها نحن.

ثم أثار كينغ سوي الغضب بإعلانه أن حكومة سنغافورة سوف تدفع أجراً متساوياً للرجال والنساء في الخدمة المدنية مما أغضب تان سيوسين، وزير مالية الحكومة الاتحادية غضباً شديداً ونقل غضبه إلى «التونكو». كان يعتقد أن هذا التبديل سيكون له مضاعفات مالية واجتماعية بالنسبة إلى ماليزيا لأن نساءها العاملات سوف يطالبن بأجر متساوٍ.

جاءت القشة الأخيرة التي أطفحت الكأس، فعندما أعلمت «التونكو» أنني كنت أخطط لجولة تشمل دلهي والقاهرة وبلغراد ولندن وموسكو وبكين. كان مذعوراً. وكنت أسلك طريقاً خطراً يتصل بالعدو. كنت أعطي انطباعاً بأن القادة الروس والصينيين رجال عظماء، في حين أنهم في الواقع «رفات أشرار» يريدون تدمير استقلال مالايو لم يفهم وجهة نظري، وهي أنني بعد أن أزور هذه البلدان واستقبل من قبلها سأكون مهيئاً على نحو أفضل لإعلام الناس بأنني أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى أن النظام الشيوعي غير مناسب لسنغافورة والمالايو. لم تكن هذه وجهة نظر تونكو. فهو لم يكن يريد لأي إنسان في ماليزيا أن يصادق العدو. كان غاضباً من نقاشي معه حول هذا الموضوع، واستخلصت في النهاية أن الموضوع لا يستحق الاصطدام معه.

تصاعد الغضب. في 25 آذار في سنغافورة إذ هاجم المتطرفين الذين ينظرون إلى الجزيرة على أنها «صين صغيرة» وعارض الاندماج، وقطع العلاقات مع حزبنا كي يحاربه. فإذا كانوا يريدون خلق المصاعب وإسالة الدماء فمن الأفضل أن لا نندمج مطلقاً، كما قال، وفي هذه الحالة سيغلق «كوزواي» من أجل سلامة الماليو. وأضاف أن الجماعات المتطرفة ليس لديها ما تخشاه بعد الاندماج طالما أنها تحترم القانون وتعمل في إطار الدستور الاتحادي ـ كان هناك الكثير منهم في الماليو، أكثر ممن هم موجودون في سنغافورة.

كان ذلك من سماته. قال في «مجلس الممثلين في كوالالامبور»: إن وزير داخليته سوف يتعامل مع الشيوعيين. والآن قال: سيكون الأمر على ما يرام إذا تصرفوا ضمن نطاق الدستور. وكان من الواضح أنه يريد التعامل معهم. كان ينغمس غالباً في مثل هذه الملابسات. فما قاله قراءة لما يفكر به «التونكو» ـ، ليس بالضرورة منطقياً ودقيقاً في عرضه ولكنه يترك مستمعيه يعرفون أين يقف. على أن مقاربته هذه المرة كانت أقرب إلى المساعدة منها إلى الإعاقة. لقد أكد على هشاشة سنغافورة، وتصميمه على الوصول إلى الاندماج. وبعد يومين فقط تحدث في حفل غداء قدمه كو تيك كين، وهذه المرة ترك شعره مرسلاً. قال: «إن انشقاقاً كاملاً بين سنغافورة ومالايا يمكن أن يعني الحرب ومذبحة ذات نتائج وخيمة على الشعب. ستنشب الحرب إذا سعت سنغافورة المعزولة إلى السلوان في صحبة قوى غير صديقة للاتحاد (يعني الصين)».

فبعث سيلكيريك بتقرير إلى لندن يقول فيه:

«أشعر أن مذكرة أقرب إلى أن تكون هستيرية ومتغطرسة، ستكون مؤذية ورافعة حرارة في سياسة سنغافورة في وقت نحاول فيه إدخالها في الاندماج بهدوء وبصورة حتمية، فالتهديدات بإغلاق «كوزواي» وبحرب بين سنغافورة والاتحاد مدمرة وليس من شأنها إلا أن تساعد «الباريسان سوسيالس» على إثارة المشاعر الطائفية ضد المالاويين... ولكن لعل ما هو

أهم من التأثير في سنغافورة الإشارة إلى الحالة المضطربة لتفكير «تونكو» إنه في حيرة واضحة واستياء لأن عرضه على ماليزيا لم يكن موضع ترحيب بأذرع مفتوحة في كل من بورنيو وسنغافورة. ولعله يأسف إلى حد ما من جراء هذه الشراكة. ومع هذا أعتقد أنه ما يزال ينوي السير قدماً مع ماليزيا، ولعل المقاطع الأكثر تطرفاً في خطبه لا ينبغي أن تؤخذ كثيراً على محمل من الجد».

كان سيلكيرك مخطئاً بشأن تأثير كلمات «التونكو» فقد كان لها تأثير كبير في زعماء الباريسان الذين تأكد لهم أن «التونكو» كان يعني ذلك وأنه دخل الآن المعمعة. لقد رسم لوحة كئيبة عن مستقبل سنغافورة إذا لم تكن هناك ماليزيا. وقد تنّبه ليم تشين سيونغ كي يكتب إلى «التونكو» طالباً تأييد حزبه للاندماج مع ماليزيا. وقد سلمت الرسالة بهدوء في مجلس الاتحاد في سنغافورة، ولكن «التونكو» سرّب الحقيقة من خلال أحد مساعديه وخرجت صحيفة «ستريتس تايمز» تحمل عنواناً «رسالة سرية، إنها من ليم». وتحت ضغط الصحفيين أكد ليم تشين سيونغ أنه كتبها وأنه ممتنٌ للتونكو لإرساله جواباً فيه كثير من الحفاوة .وعندما سئل عما يحتويه رفض الإجابة.

تجاه توبيخ ساخر تلفظ به تشين تشي ـ هل هي صفقة سرية؟ ـ قدم د.لي سيوه أخيراً الرسالة وجواب التو نكو في 11 تموز. كتب ليم تشين سونغ أنه فكر كثيراً في أن مشاعر «تونكو» المحزنة تجاه سنغافورة ناجمة من الافتقار إلى فرص من أجل مناقشة حرة وصريحة «للمواقف المتباعدة» بينهما، والتي كان من شأنها أن تساهم إلى حد كبير بالتفاهم والوحدة الوطنية. رحب «التونكو» في جوابه بتأكيد ليم أنه كان متفقاً معه في الرغبة في الوحدة الوطنية. وكان عليه أن يغادر سنغافورة في اليوم التالي، ولكن سيكون سعيداً بلقائه في تاريخ لاحق وسيعلم ليم متى يمكن ترتيب ذلك ولكن «التو نكو» الذي كان يعرف أن «المواقف المختلفة ظاهرياً» لم تكن قابلة للحل ولذلك لم يعطِ موعداً.

ارتكب ليم تشين سيونغ خطأ كبيراً، فكتابة الرسالة وعدم نشرها بدا للناطقين بالصينية في المقام الأول ضعفاً وإقراراً بأنه كان في موقف ضعيف وأراد أن يجري مصالحة مع «التونكو». لقد فتحت الرسالة بدون كسب أي شي بالمقابل. وأقرت ضمناً بأن «التونكو» كان الشخص المتوقع أكثر من غيره لمسك زمام الأمور من الآن فصاعداً، وليس ليم تشين سيونغ والشيوعيون، وقد عرفت أن الصينيين سيأخذون ذلك بعين الاعتبار عندما يتخذون خياراتهم في المستقبل. و كان كل ما بوسع الباريسان أن يفعلوه في تلك الأثناء هو إشغال كوادرهم من أجل المحافظة على روحهم المعنوية ومنعهم من التفكير في موقفهم الذي لا أمل منه. وبالتالي فقد أعلن د.لي أن 1500 منهم سيخرجون يوم الأحد التالي ـ وكل يوم أحد لمدة ست أسابيع بعد ذلك ـ في حملة من منزل إلى منزل لرفض كتاب الحكومة الأبيض بشأن الاندماج.

بعد أسبوع من زيارة «التونكو» زار تان سيو سين سنغافورة لافتتاح فرع من MCA والذي أصبح رئيساً له. بدا أشد خشونة من «التونكو». فقد أصبحت سنغافورة الولد المشاغب بالنسبة إلى الملايا كما قال. ولكن إذا لم يحدث اندماج فلن يكون من الضروري إغلاق «كوزواي» لأن اقتصاد سنغافورة شديد الهشاشة. ففرض جمارك بسيطة على صادرات المطاط سيقلص سوق المطاط الأكبر في العالم. وإن جزيرة أصغر من محطة مالايو «أراضي الكاميرون» لا تستطيع أن تغطي الإنتاج المطلوب بمفردها. وأضاف بأن الحكومة المالاوية لم تكن تُحكم تماماً من قبل المالاويين وليس صحيحاً أن الصينيين لم يحصلوا على صفقة. وأنه لن يكون عضواً في حكومة كان يشعر أنها معادية للمصالح المشروعة للصينيين المالاويين.

التهديد بتثبيت سنغافورة من خلال إجراءات اقتصادية لم يقربه من الصينيين في أية منطقة. وبعد أيام قليلة رد «الباريسان» بتحذيره من استقلال المالايو وسنغافورة والذي كان حقيقة مقيتة له، فأي محاولة بفرض عقوبات اقتصادية

من أحد الجانبين ضد الآخر يعني الانتحار. وفي الوقت نفسه تحدى ليم تشين سيونغ «التونكو» ولو بشكل غير مباشر وقال: لما لم يعد بوسع البريطانيين أن يحكموا وفقا للنظام الاستعماري القديم فقد قرروا أن يستخدموا في ماليزيا القوى اليمينية المحلية بضبط وحماية مصالحهم في المنطقة.

رد «التونكو» بتكرار تحذيره بأن «كوزواي» سيغلق في نهاية السنة إذا رفضت سنغافورة الاندماج،وأكد على أنه يعني ما يقول. «وقال: إذا كان الشيوعيون يظنون أنهم يستطيعون تقليد المالاويين بسهولة فإنهم يخطئون كثيراً».و بعد أسبوع قال «الباريسان» إن من شأن مثل هذه التهديدات أن تزيد النقمة الشعبية تجاه السياسيين الاتحاديين الذين كانت مواقفهم غير معقولة «وغير عادلة وغير ديمقراطية البتة» وقيل: إن الاتحاد غمر سكان مناطق بورنيو بالتنازلات، أما بالنسبة إلى سنغافورة فقد كان حافلاً بالتهديدات والإكراه والتخويف.

قد يكون الأمر كذلك، ولكن التهديدات جعلت الشعب يتأكد أن عواقب المجابهة مع «تونكو» يمكن أن تكون وخيمة، ومهما كان الأمر فإن المالايو ستتحمل ذالك بصورة أفضل من سنغافورة. كانت جماعة رجال الأعمال البريطانية فزعة، وقد عبر عن ذلك رئيس غرفة التجارة المتقاعد في سنغافورة بوصف الوضع الصناعي بأنه غير مريح، وينطوي على خطر جدي من وجود العاصمة خارج الجزيرة، في حين أن التكاليف المتزايدة سوف تحد من التجارة القائمة وتخلق صعوبات مالية.

كان المزاج العام المدرك لهذه المخاطر ضد «الباريسان» بعد تراشق الأوصاف العدوانية والجدال الذي استمر خمس ساعات حتى منتصف الليل واستؤنف في اليوم التالي أقر المجلس اقتراحاً معدلاً يرحب بعرض مشروع استفتاء وطني في سنغافورة بـ 26 صوتاً مقابل 16 صوتاً.

ومن أجل التخلص من هذا النشاط المحموم ارتأيت أن الوقت قد حان لتجديد اتصالاتي مع الزعماء البريطانيين، ولقاء عدة زعماء أفريقيين وآسيويين في طريقي في شهر نيسان 1961 فطرت إلى لندن مروراً برانغون ونيودلهي والقاهرة وبلغراد.

أيدت رئيسة الوزراء الهندية بانديت نهرو اقتراحاتي باندماج سنغافورة والمالايو وتشكيل دولة ماليزيا. وترك هذا لدي انطباعاً حسناً. فقد أصبح تأييد رئيسة الوزراء مضموناً، وكتبت صحيفة «تايمز الهند» أن مشروع ماليزيا قد آثار الترحيب في الدوائر الرسمية.

وكانت محطة توقفي الثانية هي القاهرة، حيث نشرت الأمانة العامة «للجنة التضامن الأفرو آسيوية» بيانها الانتقادي لماليزيا. وفكرت بأنني إذا استطعت أن اكسب الرئيس ناصر إلى جانبي فسأحقق انتصاراً كبيراً. وصلت مطار القاهرة في الصباح حيث كان في استقبالي نائب الرئيس، ثم نقلت إلى أحد قصور الملك السابق فاروق، والذي أصبح بمثابة بيت للضيافة. وفي تلك الليلة استقبلني الرئيس عبد الناصر في بيته المتواضع. كان لقاءً جيداً والتفاهم كاملاً. فعندما وصلت كان في استقبالي عند الباب الأمامي وحولنا المصورون. شعرت أنه فعل ذلك مئات المرات من قبل، وكانت صورته لائقة في الصحف والتلفزيون. كان ودياً للغاية وقد رحب بي أجمل ترحيب. وكان قنصله العام في سنغافورة مؤيداً كبيراً لي ولماليزيا. كان يعرف أننا لا نريد لسنغافورة أن تكون إسرائيل أخرى في جنوب شرق آسيا، وقام بنقل هذه الرسالة إلى وزير خارجيته.

أمضى عبد الناصر ساعة من الوقت وهو يستمع إلي وأنا أتحدث عن مخاطر أن تبقى سنغافورة وحدها، وأن تكون الرجل الغريب خارج جنوب شرق آسيا، ضمن جودٍ صينيٍّ وسط أرخبيل مالاوي من حوالي مائة مليون إنسان. أنا لا أريد هذا، وكان الجواب إعادة توحيد سنغافورة وشبه الجزيرة التي حكمهما الإنكليز بوصفها وحدة واحدة لأكثر من مئة سنة، قبل أن تنفصلا. لم يكن يحتاج إلى من يذكره بأن ماليزيا لم تكن مؤامرة استعمار جديد، وأكد لي أنه سيؤيدها وأنني أستطيع أن أصرح بذلك. وطوال زيارتي التي دامت لمصر خمسة أيام كان المصريون يفرشون لي السجاد الأحمر. ودعيت إلى زيارة القاهرة ثانية كي ألقاه في أي وقت. وقال عبد الناصر إنها زيارة شخصية. فقد أحببت الرجل وأحببت

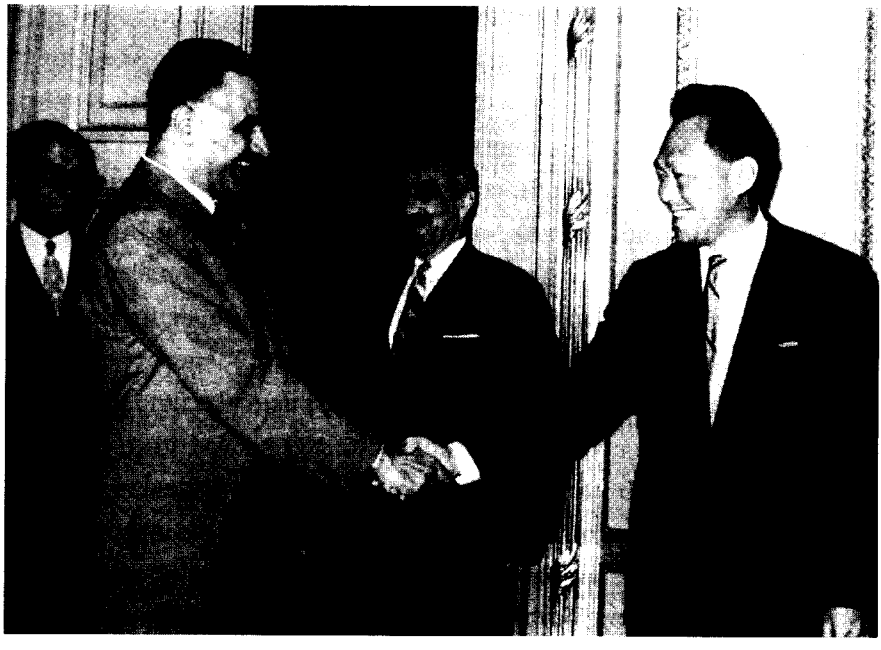

ابتسامة ترحيب كبيرة من رئيس مصر جمال عبد الناصر في نيسان 1962.

ابتسامته وأسلوب حياته البسيط، ورغبته الشديدة في تغيير كل ما هو سيء، وفاسد في أيام حكم فاروق. وقع ناصر مذكرة مشتركة معي، مخترقاً بذلك الأعراف الدبلوماسية لأن سنغافورة لم تكن بلداً مستقلاً.

وجاء في المذكرة أنه يؤيد ماليزيا و(اتحاد جميع الشعوب ذات الخلفيات السياسية والاجتماعية المشابهة... والسعي للتخلص من السيطرة الاستعمارية). كان نجاحاً سياسياً لسنغافورة أن تكون موضع تفهم وتأييد من جانب ناصر ونهرو، الزعيمين البارزين في كل من إفريقية وآسيا.

في عيد الأول من أيار توجهت بالطائرة إلى بلغراد. حيث استقبلني تيتو رسمياً. كان مقر إقامته مترفاً، خلافاً لمقر إقامة عبد الناصر، مع بوابات حديدية تفتح إلكترونياً وبدون صوت عند وصولنا. جئت لزيارته مع وزير يدعى سلافكو كومار. كان يرتدي حلة منزلية، وليس حلة رسمية. وفيما كان المصورون يلتقطون الصور كان ينظر إليهم بجمود وجدية ــ لا ابتسامات، لا حرارة استقبال، فقد كان مختلفاً تماماً عن ناصر. أصغى إلي. وقد انتهزت الفرصة كي أبين له أنني وطني ولست دمية استعمارية، وأنني لا اتفق مع الشيوعيين في سنغافورة الذين يتلقون الأوامر والإلهام من الصين، وهم لا يمكن أن ينجحوا في سنغافورة والملايو لأن توجههم الشيوعي أصيلاً نابعاً من البلاد، والمالاوية لا يمكن أن تنجح في جنوب شرق آسيا. شعرت من حركات جسمه أنني حركت فيه ساكناً. عندما ذكرتُ مقالة انتقادية لماليزيا نشرت في مطبوعات حزبهم، الشيوعي (Komunist). قال تيتو: إنها لا تمثل وجهة نظر الحكومة اليوغسلافية. فكسبت نقطة.

وعندما كنت أغادر متجهاً إلى المطار وعلى وشك مقابلة رجال الصحافة هناك سألت سلافاكو كومار ما إذا كنت أستطيع أن أعيد ما قاله تيتو لي. فقال: إن الرئيس رجل يحافظ على كلمته وعندما يقول شيئاً فإنه يعنيه. استشهدت ببيان تيتو والتفت إلى الوزير لأسأله ما إذا كنت على حق. هزّ برأسه وقال:

«نعم». وبعد مغادرتي نقلت وكالة رويترز عن ناطق باسم وزارة الخارجية يؤكد فيها (إن المقالة تمثل الرأي الشخصي للمؤلف. أما رئيس الوزراء، لي فقد أعلم الرئيس أثناء إقامته في بلغراد، كما أعلم القادة اليوغوسلاف عن الرغبة في تشكيل «الاتحاد الماليزي» وهو الأمر الذي لقي تفهماً من الجانب اليوغوسلافي).

كانت الرحلة إلى لندن هي الأولى بالنسبة إلى تشو منذ غادرتها عام 1950. ومع أنني زرت لندن ثلاث مرات منذ ذلك الحين فقد لفتت نظري بمخازنها ومطاعمها وسياراتها. وكان ماكميلان قد فاز على منافسه في انتخابات عام 1959، ويتمتع بشعبية واسعة. كنا في شهر أيار، والطقس رائع، كنا سعداء أن نجد العاصمة البريطانية منتعشة. وكانت تنتظرنا في مقر إقامتنا عدة سيارات فخمة من نوع هامر، ولكن برنامجي كان مقيداً ـ فمناقشات مع الوزراء، ومقابلات مع مؤيدي حزب العمل في البرلمان وإجراء مقابلات مع الصحف البريطانية.

كان ريغنالد مودلينغ، وزير الدولة الجديد لشؤون المستعمرات، ضخماً قوي البنية يضع نظارات على عينيه، ودوداً ويسهل التفاهم معه. استقبلني هو وزوجته بترحاب قبل مباحثاتنا الرسمية ليجعلنا نشعر بالترحيب. كما أنه جمع عدة وزراء كي يلتقوا بي على الغداء، وقد حضّرت لنا السيدة مودلينغ حفلة دجاج في فندق هايدبارك.

كانت المعضلة الرئيسية هي المشكلة القديمة ذاتها ـ هل ننظف الشيوعيين قبل الاندماج أم بعده. وقد كرر التونكو مطالبته بأن لا يتحرك «مجلس الأمن الداخلي» ضدهم قبل الأوان.

كما أوضح، أنه لا يريد اتخاذ إجراءات قمعية في اللحظة التي تولد فيها ماليزيا. فلن تكون عندئذٍ بداية ميمونة تبشر بالنجاح.

كنت مستعداً لاتخاذ إجراء قبل الاندماج ـ بشرطين مهمين مسبقين ـ. قلت لمودلينغ: إن العملية يجب أن تبدأ في الوقت الذي ما تزال المملكة المتحدة تتحمل فيه مسؤولية الأمن، أي تحت قيادة بريطاني، بوصفه رئيساً «لمجلس الأمن الداخلي». فموقفي الشعبي سيكون مؤسفاً للغاية، ولكن من خلال معرفتي الشخصية بالشيوعيين فإن هذه الخطوة ضرورية جداً. ثم أصريت على أن يظل الشيوعيون أحراراً أثناء الاستفتاء على ماليزيا، لأنني كنت أعتقد أنهم سيدعون لمقاطعته، وهذا ما لن يقبله الناس وسيكون بالتالي مسيئاً لمصداقيتهم. وسيكون من الخطأ الفادح اعتقالهم قبل الاستفتاء، فهذا سيقلل من شأنه ويعرضني لاتهامات بأنهم اعتقلوا كي يساعدونني لكي أسلم سنغافورة للتونكو. فسيكون هناك أعمال شغب احتجاجية وفوضى عارمة.

كانت بعثة خاصة في تلك الأثناء برئاسة لورد كوبولد تزور بورنيو الشمالية لتقرر المواقف هناك تجاه ماليزيا. وقد أكدت أنه مهما كانت توصيات بعثة كوبولد حول موضوع المواطنة لشعب بورنيو، فإنه لا ينبغي غلى سنغافورة أن تمنح شروطاً تفضيلية أقل. وعبارة «مواطن ماليزي» ستكون مقبولة. عندما تطبق على الجميع وفي جميع المناطق، ولكن التونكو أعلن أن مواطني بورنيو سيصبحون مواطنين ماليزيين، ولكنه لم يطلق هذا الوصف على مواطني سنغافورة.

وعندما سألني مود لينغ عن متاعبي مع التونكو، قلت له: (التونكو يعتقد أنني ذكي، ولكنني لست على صواب. كنت أكسب الجدال معه، وهذا ما يحرجه، ولكنه يشعر أن استنتاجاتي خاطئة رغم أنه لا يعرف لماذا). وقلت له: إذا كان يستطيع أن يقنع التونكو بأن ما كل صيني هو شيوعي محتمل فسيكون تأثيره عليه أكبر من تأثيري. التونكو يعتقد ببساطة، (السياسة للمالاويين والتجارة للصينيين). ربما كان هذا صحيحاً في زمن والده، ولكنه غير صحيح في عام 1962.

كما قابلت لبحث الخلاف حول المواطنة اللورد كوبولد في ذلك الصباح وناقشنا توصياته بشأن بورنيو، وقلت له: إنني أشعر بالسعادة الآن لأنهم عرفوا كيف يؤثرون في سنغافورة، وكيف يزيدون في قناعتي.

لم تكن زيارتي للندن عملاً كلها. فقد توجهنا إلى كمبريدج لمقابلة بيلي تاتشر لشرب الشاي في فندق «آرمز سيتي يونيفير». كان تاتشر مسروراً بما حققته منذ غادرت كمبريدج عام 1949، وسألنا عن أولادنا وأهداني نسخة من كتاب لويس كارول (أليس في بلاد العجائب) لأعطيها إلى لونغ. وقال: إنه ينبغي أن يحضر سريعاً إلى لندن كي أراه. لم يبد لنا ضعيفاً جداً، وكنت سعيداً بلقائه. ولكنه مات بعد سنة وحزنت عليه أنا وزوجتي.

كان قضاء عطلة الأسبوع في كمبريدج فرصة مريحة وسط برنامج رسمي مليء، تضمن رسالة إذاعية من محطة BBC إلى سنغافورة. شرحت فيها كيف أن زعماء دول عدم الانحياز ـ الهند ومصر ويوغسلافيا قد أعلنوا عن تأييدهم الصريح لماليزيا. ولم يكن هذا النبأ مريحاً لأنصار الشيوعيين.

فتقارير الصحافة والإذاعة ولقاءاتي مع نهرو وعبد الناصر وتيتو وما أذاعته في محطة BBC من لندن، كانت مفيدة لي لأن "الباريسان" هاجمني بشدة. وكان شرحي لهؤلاء الزعماء الأفرو ـ آسيويين بأن ماليزيا ليست دمية استعمارية قد أغضب أعدائي، وادعوا أنني كسبت تعاطفهم وتأييدهم بإعطائهم انطباعاً زائفاً. وزعموا أن نهرو وتيتو وني وين (خلافاً لعبد الناصر) لم يصدروا بيانات مشتركة مع رئيس وزراء غير موثوق. ولكنهم لم يستطيعوا أن ينكروا أنهم أيدوا ماليزيا. عدت إلى سنغافورة بشعور بالراحة بعد خمسة أسابيع بعيداً عن المنافسات اليومية الطاحنة وضغط إضرابات العمال. استعدت روحي المعنوية كي أواجه المناوشات مع الشيوعيين، وتبادل الانتقادات القاسية معهم في الصحف ومواجهة إضراباتهم في وقت كانت الأعمال فيه تعاني من الركود وفقدان فرص العمل وازدياد البطالة.

لم تكن الأمور شديدة السوء. ففي أيار تجمهر ثلاثة آلاف طالب في مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية بمناسبة الذكرى السنوية للمواجهات مع الشرطة عام 1954. أنشدو الأغاني وأدانوا الحكومة لتشكيلها لجنة للتحقيق في مقاطعة أربع

امتحانات في المدارس الثانوية، والدعوة إلى مقاطعة الصفوف لمدة يوم واحد في جميع المدارس الصينية في يوم 21 أيار، وهو اليوم الذي ستبدأ فيه اللجنة عملها. ولكن في اليوم نفسه كانت نسبة الحضور مئة بالمئة في 19 مدرسة من أصل 25 مدرسة صباحية. وقام 100 طالب بلصق الإعلانات على الجدران ولمبات الإنارة وإشارات السير،ولكن في الساعة الخامسة صباحاً توقفوا عن ذلك. إذ لم يكونوا يخشون أن يراقبهم أحد أو يصورهم.

على الرغم من أن «الباريسان» كان يطوف المدينة كل يوم أحد، فإن الأرض لم تهتز تحت أقدامنا.